وجوه لا نراها

إسراء الهاشمي

وجوه لا نراها

☆ ☆ ☆ ☆ ☆ مجموعة قصصية ☆ ☆ ☆ ☆ ☆

بقلم : إسراء الهاشمي

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو نقله بأي وسيلة كانت دون إذن مسبق من الكاتبة.

الطبعة الأولى – 2025

تصميم الغلاف وتنسيق داخلي: إسراء الهاشمي

ISBN: (...)

وجوه لا نراها...

هذه القصص لا تقدم أبطالًا خارقين، بل بشرًا يشبهوننا، يحملون ظلالًا لا نراها في الضوء العادي.

أردتُ أن أكتب عن ما لا يُقال، عن الخوف الذي لا يُصرّح به، عن الأمل الذي يختبئ خلف الهزيمة.

هذه القصص ليست متشابهة، لكن يجمعها سؤال واحد:

ماذا يحدث في الداخل حين ينهار الخارج؟

المحتويات

1. عين الثغرة ٥
2. ثمن الأمنيات ١٤
3. نادر: ظلّ المدينة.. وكوارثها!..... ٢٦
4. أكاديمية الأبطال الفاشلين ٣٤
5. زائر من المجرة المجاورة ٤٤
6. في قلب الخراب: نبضٌ لا ينتهي..... ٦٠
7. "أرض الأحلام... حنين لا يزول"..... ٦٧
8. شظايا الدم..... ٧٧
9. الهروب إلى الذات..... ٨٨
١٠ .وجهي الذي لم أعد أخفيه..... ٩٨

عين الثغرة

"كانت الرياح تعوي خلف جدران المجمع الخرساني، المصمَّم لعزل الصوت تمامًا، رغم أنه يقع في منطقة نائية بلا نوافذ."

في الطابق السفلي، وتحديدًا في المختبر 9، وقف الدكتور "سامر" أمام الحاسوب الرئيسي، تتأمل عيناه آخر القراءات التي تتدفق على الشاشة. حوله، تحلّق ثلاثة علماء آخرين في صمت وترقب.

"ليلى"، خبيرة الذكاء الاصطناعي ذات النظرات الصامتة والتحليلية؛ "نبيل"، تقني الأنظمة الذي يُكثر من النكات لإخفاء توتره الواضح؛ و"عادل"، الكيميائي الذي لم يكن يؤمن بما سموه "مشروع الثغرة"، لكنه بقي، مدفوعًا بفضول مريض، ليرى إلى أين سيوصلهم هذا الجنون.

تحت ضوء المصابيح البيضاء القاسية، بدا كل شيء في المختبر منظمًا بدقة متناهية... إلا وجوههم الشاحبة. لم يكن أحد منهم يعرف بالضبط ما الذي سيحدث عند تشغيل الآلة. التجربة تعتمد على نظرية لم تُنشر بعد، وعلى معادلات معقدة لا يتفق عليها أحد في الأوساط العلمية. ومع ذلك، كان هناك ما يدفعهم للاستمرار — شيء يشبه الفضول الذي يصل حد الهوس.

"هل أنت متأكد من هذا يا "سامر"؟" تمتم "عادل"، يرمق الغرفة الزجاجية التي ستُفتح فيها الثغرة بنظرة متوجسة.

أجابه "سامر" دون أن يلتفت إليه، وعيناه مثبتتان على الشاشة: "أنا لا أبحث عن الأمان، أنا أبحث عن العلم عن المعرفة."

صدرت أول صفارة إنذار ناعمة، إيذانًا بالعد التنازلي لتفعيل المحرّك البُعدي. ولم يكن أحد يعلم أن أول من سيتأثر، لم يكن الآلة ذاتها... بل عقولهم.

بدأت الشاشات تُظهر تموّجات غير مفهومة، دوائر من البيانات تدور وتتقلص بعنف، كما لو أن الواقع نفسه كان يُسحب بقوة نحو مركز لا يُرى. ارتفع صوت الآلة تدريجيًا، أنينٌ منخفض يُشبه زفير شيءٍ ثقيلٍ ينهض من نوم عميق ومظلم.

في الغرفة الزجاجية، شُغّل الحقل الكهرومغناطيسي بتأثير مرعب. وفي وسطه، تركزت طاقة غير مرئية لتشكل فراغًا غريبًا، بدا في بدايته وكأنه مجرد تذبذب طفيف في الهواء... حتى بدأ "الفراغ" يأخذ شكل فتحة دائرية، عميقة، لا تُظهر شيئًا خلفها سوى سواد حيّ، نابض.

"هل ترون هذا؟!" صاحت "ليلى" بذهول، وهي تحدّق في الشاشة الحرارية، "الحرارة تنخفض في المركز بشكل غير منطقي، لكن لا يوجد مصدر تبريد!".

"نبيل"، الذي كان يراقب المجسات الرقمية، همس بصوتٍ مرتجف: "هذا ليس فراغًا عاديًا... إنه شيء آخر. كأننا نحدّق في... في عين ضخمة."

بدأت الإضاءة في المختبر تنخفظ فجأة، بشكل متقطع. وظهرت خطوط رفيعة من الظلال المتحركة على الجدران، كما لو أن الظلال ذاتها بدأت تتكاثر بشكل غير طبيعي، وتكتسب وجودًا ماديًا.

ثم سُمعت أول همسة.

لم تكن من الأجهزة.

ولا من أحد منهم.

بل من داخل الغرفة الزجاجية.

كان صوتًا هشًا... طفلًا يبكي؟ أنينًا خافتًا؟ لا أحد استطاع التأكيد. لكنّ "سامر"، من دون أن يدرك، كان قد اقترب من الزجاج، يحدّق في الثغرة المفتوحة بتركيز شديد وكأنه يسمع شيئًا لا يسمعه غيره، شيئًا يناديه من بعيد.

"هل... هل نغلقها؟" قالت "ليلى"، ويدها ترتجف بوضوح على لوحة التحكم، لكنها لم تجرؤ على الضغط.

لم يُجبها "سامر" لأنه للمرة الأولى في حياته... كان يشعر أن أحدًا ينظر إليه من داخل ذلك الظلام المطلق.

مرّت ساعتان منذ فتح الثغرة. لم تخرج منها مادة ملموسة، ولا طاقة مرئية، فقط ذلك الفراغ الأسود الذي لا يُظهر شيئًا، لكنه... يبتلع شيئًا ببطء. ليس الهواء المادي، بل الشعور بالأمان، والمنطق، وحتى وجودهم.

في البداية، ظهرت تشوّشات خفيفة ومتقطعة في الشاشات. "نبيل" افترض أنها مجرد أعطال تتأثر بالحقل المغناطيسي، لكن "ليلى" قالت ببرود تحليلي:
"الأجهزة لا تتأثر بشيء ثابت، وهذا الشيء لم يتغير منذ فتحه. هذا ليس عطلاً، هذا تأثير".

ثم حدث ما لم يتوقعه أحد.

بدأت الكلمات تُمحى من ملفات الحاسوب تلقائيًا. تقارير بأكملها حُذفت من دون تدخل بشري. كتب "سامر" على عجل نسخة ورقية من أهم الملاحظات، لكن حتى خطّه بدا متشوشًا، كما لو أن الحبر يتلاشى ببطء من الصفحات.

في تلك الليلة، وبعد أن عاد الجميع إلى استراحاتهم في الطابق العلوي، بقيت "ليلى" وحدها في المختبر، تسجل ملاحظات صوتية، صوتها يرتجف قليلًا في البداية.

في الصباح الباكر، لم يُعثر لها على أثر.

وجدوا ميكروفون التسجيل لا يزال يعمل، وقد سجّل آخر لحظاتها:

"هل هناك أحد؟ نبيل؟ عادل؟" كان هذا صوت "ليلى"، ممزوجًا بشيء من القلق.

تبع ذلك صوت كرسي يتحرك بعنف، وخطوات سريعة متتالية، ثم صوت أنفاس مضطربة ومكافحة.

"نبيل، كفى مزاحًا... لا وقت لهذا! أنت دائمًا تمزح في أسوأ اللحظات..." بدا صوتها يتلاشى.

صمت ثقيل... ثم صرخة مفاجئة ومخيفة، اهتز لها الميكروفون.

"لا... لا تقترب مني!!"

صوت تشويش عالٍ، وصفير بعض الآلات المتقطع، ثم انقطاع مفاجئ.

ساد الصمت المطلق في الغرفة بعد ذلك.

بعد اختفاء "ليلى"، بقي في المختبر ثلاثة فقط: سامر، نبيل، وعادل.

"نبيل" لم يعد يقترب من الثغرة مطلقًا. يجلس في زاوية قصية من المختبر، يلف نفسه بمعطفه الثقيل، يتحدث إلى نفسه بكلمات غير مفهومة، وكأنه يقاوم أفكارًا غريبة ليست أفكاره، تتدفق إلى عقله من مصدر مجهول.

أما "عادل"... فقد أصبح شخصًا آخر تمامًا. صامت تمامًا، لا ينام، لا يأكل، فقط يرسم. كل الجدران الزجاجية في المختبر امتلأت برموزه المتداخلة والمكررة، وفي كل مرة يسأله سامر: "ماذا ترى؟" كان يهمس بصوت أجوف:

"إنه يُظهر لي صورًا... صورًا من أماكن لا تعرف الضوء إطلاقًا."

"سامر" كان الوحيد الذي ظل يتمسك بآخر خيوط رباطة جأشه. جلس أمام الحاسوب، يحاول تحليل البيانات التي بدأت تتصرف بعشوائية مطلقة: الرسوم البيانية تنبض مثل نبض قلب متسارع، الكلمات تظهر وتُمحى من تلقاء نفسها، وبعض الملفات الرقمية... بدأت تنطق بصوت "ليلى" الواضح.

سمعها بوضوح تقول، وكأنها تناشده من بعيد:

"سامر، لا تدعهم يغلقونها. إنه اكتشاف عظيم... عظيم جدًا."

أغلق السماعات ببطء شديد، ويداه ترتجفان.

صوته كان ميتًا حين قال، بالكاد مسموعًا: "إنها لم تختفِ... الثغرة ابتلعتها. لكن وعيها ما زال موجودًا في الداخل، يستصرخنا."

ثم نظر إلى زر إيقاف التجربة الأحمر، وبجواره زر تكثيف الطاقة الأخضر، الذي لم يُستخدم بعد. كان يعلم أن الخيارين أمامه سيؤديان إلى المجهول التام.

إغلاق الثغرة قد يقتل كل من ابتلعته، وينهي أي فرصة لإنقاذ "ليلى".

وتكثيف الطاقة... قد يفتح الباب على مصراعيه لشيء لا يمكن تخيله.

وقف "نبيل" فجأة، صرخ بصوت يائس قبل أن تبتلعه الكلمات: "لا تفعل! "سامر"، اسمعني جيدًا! أنت الوحيد الذي يعرف ما قد يحدث عند تكثيفها! أرجوك، لا تفعل ذلك!"

أما "عادل"، فقد ابتسم ابتسامة غريبة لم تنتمِ إليه قط. ابتسامة بلا ملامح بشرية.

قال "سامر" بصوت خافت، كأنه يخاطب نفسه:

"ربما لا نملك خيارًا بعد الآن."

ثم مد يده المرتعشة، وضغط على زر تكثيف الطاقة.

حين ضغط "سامر" زر تكثيف الطاقة، ساد صمت غير طبيعي. الثغرة بدأت تتمدد، لكن ليس نحو الخارج كما كان متوقعًا... بل نحو الداخل، نحو بعدٍ غير

مفهوم. الجدران ارتجّت بعنف، والإضاءة في المختبر انخفضت تدريجيًا ثم استقرت على لون أزرق باهت، كأن المكان غمره ضوء لا ينتمي لهذا العالم.

"نبيل" سقط على الأرض، يصرخ من دون صوت. فمه مفتوح على آخره، لكن لا يخرج منه شيء، وكأن صوته سُلب منه.

أما "عادل"... فقد اقترب من الثغرة، وامتدت يده إليها ببطء، دون خوف أو تردد.

قال بصوت غريب، مزدوج النغمة، وكأن كيانًا آخر يتحدث من خلاله:

"إنه كان ينتظر... منذ أول شرارة في الوجود."

"سامر" لم يشعر بالخوف كما ظن أنه سيفعل... بل بشيء أشد خطورة وغموضًا: فضول لا حدود له. رأى داخل الثغرة صورًا متلاحقة تتراقص أمامه: غرفًا تشبه مختبرهم، لكنها مقلوبة رأسًا على عقب... أجسادًا تتحرك بلا ظل... وطفلة صغيرة تشبه ليلى، تحدّق إليه من الداخل بعينيها الواسعتين.

ثم سمع صوته... نعم، صوته هو، يهمس من الأعماق، من مكان لا ينتمي للواقع:

"لقد كنت دومًا أنت البوابة."

ارتجّ المكان بعنف. الثغرة لم تعد مجرد فتحة — بل أصبحت مرآة تتنفس، تعكس شيئًا غير مرئي.

في اللحظة الأخيرة، وقبل أن يُسحب شيء من الهواء فجأة بشكل عنيف، نظر "سامر" خلفه. لم يرَ نبيل أو عادل.

لم يبقَ أحد سواه.

ثم...

انطفأ كل شيء فجأة.

العدم الأبدي

صمت ثقيل، كأن الزمن نفسه توقّف عن الوجود.

في قلب العتمة المطلقة، بدأ ضوء ضئيل ينبض، ضوء غريب يخرج من داخل الثغرة... ثم خرج منه كيان.

لم يكن له ملامح بشرية، ولا شكل محدد. كان كتلة من السواد المطلق، كثيفًا كأنه امتص ضوء العالم بأسره، يتحرك بلا أطراف، لكنه حيّ... يزحف ببطء على الأرض، ويمد امتداداته كسائل حي، يكتسح كل ما حوله.

"سامر" لم يصرخ. فقط حدّق فيه، عاجزًا عن الحركة، وعيناه تتسعان بالرعب وهو يُسحب ببطء، ببطء شديد، نحو تلك الفجوة المظلمة التي لم يكن يعرف عنها شيئًا.

حين لامس الكيان جسده، اختفى الصوت تمامًا، واختفى المعنى، وتلاشت الحياة.

وسُحب "سامر" إلى الداخل، إلى العدم.

لحظة واحدة فقط... وانفجرت الفجوة في صمت رهيب، ناشرة ظلامًا كثيفًا اجتاح المختبر بأكمله.

غطّى كل شيء.

ابتلع كل شيء.

ثم... بعد دقائق، عاد الضوء الهادئ.

لكن المختبر كان فارغًا تمامًا.

لا أثر للبشر. لا دم. لا أجهزة. لا أوراق.

مجرد جدران بيضاء ناصعة، نظيفة تمامًا، وكأن أحدًا لم يطأ هذا المكان من قبل.

حتى اسم "المختبر 9" على الباب... اختفى.

"ولا أحد يعلم حتى اليوم، إن كان المختبر 9 وُجد حقًا... أم كان مجرد ثغرة في عقل رجل أراد أن يرى أكثر مما يجب."

ثمن الأمنيات

في إحدى ليالي الشتاء الباردة، حيث تتراقص ألسنة اللهب في المدفأة الخشبية بمقهى "الملاذ"، اجتمع خمسة أصدقاء – سيلين، طلال، دانا، رائد، ويوسف.

كانت هذه طقوسهم منذ سنوات الدراسة، يتبادلون القصص الغريبة والنكات، لكن هذه الليلة كانت مختلفة. الحديث لم يكن عن خيال، بل عن واقع مريب، عن مكان مهجور يتربع على أطراف المدينة، مصنع قديم ابتلعه النسيان منذ عقود.

"يقولون إن في داخله آلة... ليست كأي آلة. آلة يمكنها تحقيق أي أمنية،" همست دانا، عيناها تتسعان ببريق فضول يكاد لا يصدق.

ضحك طلال ساخرًا، محاولًا تبديد التوتر الذي خيّم على الطاولة: "أكيد آلة تسوي لك قهوة الصبح وتمررها لك على السرير. أمانيكم هذه!"

لكن رائد، بملامحه الجادة وشغفه الدائم بالقصص الغامضة، قاطع ضحكات طلال: "أنا سمعت عنها قبل. في منتدى قديم، أحدهم كتب أنه رأى شخصًا يخرج من هناك وهو يبكي... قال إن أمنيته تحققت، لكنه ندم."

ورغم التردد الذي تسلل إلى قلوبهم، كان الفضول أقوى من أي حذر. في مساء اليوم التالي، تحت أجنح الظلام، اتجه الأصدقاء الخمسة نحو أطراف المدينة، إلى المنطقة الصناعية المهجورة. أمامهم، وقف سياج معدني عالٍ صدئ، يحمل لافتة باهتة تكاد لا تقرأ: «دخول ممنوع — خطر الانهيار». توقفوا للحظة،

يراقبون الظلام الكثيف الذي يبتلع المكان، والهواء الثقيل المليء برائحة العفن والرطوبة.

وجدوا ثغرة ضيقة بالكاد تسمح بمرور جسد واحد بين الأسلاك المتآكلة. بدأوا يزحفون بحذر، أصوات المعدن المتهالك تصدح في الصمت، ومع كل خطوة، كانت قلوبهم تتسارع نبضاتها، ترسم في الأفق المجهول.

دخلوا المصنع المتهدم. الأرضية المهترئة كانت تئن تحت أقدامهم مع كل خطوة، كأنها تحذرهم. فجأة، كادت دانا تسقط في حفرة مظلمة ابتلعت جزءًا من الأرض، لكن يوسف التقط يدها في اللحظة الأخيرة، مخلصًا إياها من السقوط المحتوم في ظلام لا نهاية له.

تقدموا نحو القبو، حيث انتصب باب فولاذي ضخم، مغلق بمسامير وعتلة متآكلة يغطيها الصدأ الكثيف. حمل طلال العتلة. رغم الألم الذي سببه الشق في يده، رفعها ببطء. صرير الباب المريع اخترق الصمت، وكأن المكان نفسه يئن تحت وطأة الزمن الذي حبس بداخله.

عندما فُتح الباب، استقبلهم جو بارد وثقيل، كأن الزمن قد توقف هناك منذ الأزل. الضوء الخافت لآلة قديمة، لكنها ذات حضور غامض، ينبعث من أعماق القبو، يدعوهم للاقتراب... إلى عالم مختلف، حيث تتحقق الأمنيات، لكن بثمن لا يُكشف إلا بعد فوات الأوان.

في قلب القبو.

وقف الأصدقاء أمام الآلة، ضوؤها الخافت ينبعث منها كنبضات قلب هادئة، يملأ الجو بالتوتر والفضول.

قال طلال بابتسامة تحدٍ: "طيب، من يبدأ؟ أنا أول واحد، ولا أنتم؟"

تقدمت دانا بخفة، وعلى وجهها ابتسامة متوترة: "أنا أيضًا مستعدة. كل شيء واضح، أليس هذا ما اتفقنا عليه؟ إنها فرصتنا!"

نظر رائد إليهم، عيناه تلمعان بترقب: "سأبدأ أنا. أمنيتي أن تصبح موهبتي معروفة، أن يراني الجميع، أن يصبح اسمي على كل لسان."

واحدة تلو الأخرى، تقدم الأصدقاء، وأعلن كل منهم عن أمنيته:

* سيلين:تمنت حياة طويلة بلا موت.

* طلال: تمنى الثراء الفاحش.

* دانا: تمنت الجمال الكامل.

* رائد: تمنى الشهرة التي طالما حلم بها.

أما يوسف، فظل واقفًا مترددًا، نظراته تعكس قلقًا عميقًا. بصوت هادئ ومتردد، قال: "لن أطلب أمنية. ألم تقرأوا ما كُتب فوق الآلة؟" رفع يوسف إصبعه نحو نقش باهت على جسم الآلة:

"لكل أمنية ثمن... والثمن لا يُكشف إلا بعد فوات الأوان."

تقدم طلال، مقللاً من شأن كلام يوسف، وابتسامة ساخرة على وجهه: "وكيف تعرف أن هناك ثمن؟ قد تكون مجرد أسطورة. ما الذي يمكن أن نخسره إذا جربنا؟"

أجاب يوسف بحزم: "قلت لن أجرب."

ضحك الأصدقاء، واستمروا في استعدادهم، غير مدركين أن كلمات يوسف لم تكن مجرد تحذير، بل ربما كانت محاولة لإنقاذهم من قدر محتوم.

بعد أن نطق كل منهم بأمنيته، خفت ضوء الآلة تدريجيًا، وعمّ القبو صمت غريب، كأن كل شيء قد انتهى... أو بدأ للتو. نظروا إلى بعضهم البعض بحيرة.

قالت دانا وهي تضحك بتوتر: "غريب... توقعت أن يحدث شيء، انفجار ضوء مثلاً، أو صوت موسيقى درامية صاخبة."

ابتسم رائد وهو يشد سترته: "ربما لا شيء يحدث الآن... وربما الأمنيات تبدأ غدًا."

خرجوا من القبو بنفس الطريق الصعب الذي دخلوه منه، متعبين ومتسخين، لكن في أعينهم بريقًا غامضًا من الأمل والترقب. عند بوابة المنطقة المهجورة، توقفوا للحظة أخيرة.

قال طلال بابتسامة واسعة: "علينا ألا ننسى بعضنا بعد تحقيق الأمنيات، مهما حدث!"

ردت سيلين بضحكة خفيفة: "هههه لا تقلق، لن ننسى."

يوسف، الذي ظل صامتًا معظم الوقت، قال أخيرًا، بنبرة تحمل ثقلاً غامضًا: "لا تنسوا... كل أمنية لها ثمن. لا تتفاجؤوا إن بدأ كل شيء بالتغير."

نظروا إليه بصمت، ثم تفرقوا، كلٌ يحمل في قلبه انتظاره الخاص، ومستقبله الذي لم يعد ملكًا له وحده. لم يكن أحدهم يعلم أن تلك الأمنيات... كانت أول خيط في نسيج معقد من الأحداث التي ستقلب حياتهم إلى الأبد.

بعد مرور أيام قليلة منذ عودة الأصدقاء من القبو.

رائد:الاسم الذي نسي صاحبه

كان رائد الأكثر حماسًا، يتحقق من هاتفه كل ساعة تقريبًا، يتخيل لحظة أن يصبح اسمه على لسان الجميع. وفي صباح اليوم الخامس، استيقظ على سيل من الإشعارات... مقطع قديم له وهو يعزف الكمان في الشارع انتشر فجأة كالنار في الهشيم. تعليقات، إعجابات، مشاركات بلا نهاية. ثم جاءت الرسائل: عروض من شركات إنتاج شهيرة، وبرامج حوارية تتوسل لقاء معه.

ضحك رائد، شعر كأنه يطير، وكأن الآلة صدقت وعدها. لكن شيئًا آخر بدأ يحدث... خلال أشهر قليلة، بدأ الناس يعرفونه في الشوارع، يصورونه بلا إذنه، يتبعونه، يراقبون كل حركة. صفحة مجهولة على الإنترنت تنشر أسرارًا لم يخبر بها أحد، تفاصيل حميمة من حياته تتدفق علنًا.

وفي ذروة شهرته، بدأ يشعر بشيء غريب... نظرات الناس إليه أصبحت كأنها تخترق جلده، تستنزف روحه. كل من حوله يتحدث عنه، يحلل حياته، لكن لا

أحد يعرفه حقًا. وقف أمام المرآة في ليلة خالية من النوم، نظر إلى وجهه طويلاً. "هل هذا أنا؟" تساءل بصوت خافت.

بدأ يشعر وكأن شخصًا آخر يسكن جلده، يمثل باسمه، يبتسم باسمه... بينما رائد الحقيقي يبتعد أكثر فأكثر، يذوب في بحر الشهرة.

في إحدى المقابلات التلفزيونية، سأله المذيع باسمه الحقيقي... فتوقف رائد لثانية طويلة، صمتٌ مريرٌ خيّم على الاستوديو، لقد نسي إسمه ،لم يعد رائد القديم موجوداً ،بل صارا شخصًا آخر تمامًا.

وفي الليلة التي تلت، كتب في دفتره: "كل من حلمت أن أكونهم، أصبحوا أنا... لكنني نسيت من كنتُ. الشهرة... أكلتني."

ثم نظر رائد إلى المرآة للمرة الأخيرة، وكتب بخط صغير على الورقة أمامه: "أن أُنسى... أفضل من أن أتوه في صورةٍ لا تشبهني."

وأغلق الضوء.

في صباح اليوم التالي، انتشرت أخبار وفاته كالنار في الهشيم. الجميع تحدّث عن المأساة، عن فنانٍ موهوب، رحل في ذروة مجده... لكن لا أحد عرف من هو حقًا. ولم يبقَ من رائد سوى ابتسامة نصفها حزن... ونصفها وداع.

سيلين: لعنة الخلود

منذ أن غادرت القبو، شعرت سيلين براحة خفية، كما لو أن عقدة الخوف من الموت التي خنقتها لسنوات بدأت بالذوبان. "لن أموت"، كانت تردد لنفسها كتعويذة. "لن تنتهي حياتي فجأة كما انتهت حياة أمي، لن أترك شيئًا ناقصًا، لن أرحل مبكرًا."

في البداية لم تشعر بشيء غريب، فقط صحة قوية، لا تمرض، لا تتعب. وفي حادث سير مروّع، خرجت منه دون خدش... بينما فارقت إحدى صديقاتها الحياة أمام عينيها. كان ذلك أول سهم صغير يغرس في قلب أبديتها المزعومة.

مرت السنوات، وبدأ الزمن يترك بصماته على من حولها... عدا هي.

أصدقاؤها شاب شعرهم، تزوجوا، أنجبوا... ثم بدأوا يختفون واحدًا تلو الآخر، يسرقهم الموت بطرق مختلفة. دانا ماتت في ولادة متعسرة، رائد انتحر في لحظة انهيار نفسي، طلال اختفى فجأة في غياهب المال. كانت سيلين تقف في جنازات من تحبهم... بثوب أسود لا يتغير، بعينين لم تذبل، تحمل فوق كتفيها ثقل الذكريات والألم الذي لا يتبدد.

ثم جاء الثمن الثاني، الأقسى. بدأت تنسى. في البداية، نسيان بسيط: كلمة، مكان، وجه. ثم بدأ النسيان يتسلل إلى الأعماق... "من هي دانا؟" "كيف ماتت أمي؟" "من كان أول من أحببته؟" بدأت تكتب أسماء الناس على جدران غرفتها، تخطّ ذكرياتها في دفاتر، لكنها حين تقرأها... لا تتعرف على الشعور، لا تستحضر الذكرى.

وفي إحدى الليالي، نظرت إلى المرآة، وقالت لنفسها بصوت مبحوح: "أنا سيلين... أنا... أنا..." ثم صمتت، وهي تحدق في عينيها الخاليتين من أي نور. كانت ما تزال تعيش. لكنها لم تعد تحيا.

طلال: فخ الثراء

لطالما قال طلال وهو يضحك: "أنا خُلقت لأكون ثريًا... الفقر إهانة للذكاء!" ولما نطق أمنيته داخل القبو، كان أول من قالها دون تردد: "أريد أن أكون أغنى رجل في العالم."

وبالفعل... خلال أيام بدأت الأمور تتغير بشكل جنوني. ورث ثروات فجائية من أقارب بعيدين لم يسمع بهم قط. استثماراته على الإنترنت انفجرت، عملة رقمية اشتراها بلا اهتمام أصبحت أغلى من الذهب. فتح حساباته البنكية... أرقام لا تنتهي، لا يمكنه حتى عدها. قصور، يخوت فاخرة، ساعات نادرة، سيارات من المستقبل. يسافر حيث يريد، يشتري ما يحب، كل شيء بمتناول يده.

ولكن... في أحد الأيام، وهو جالس في جناح فندقه الفخم بجزيرة خاصة، أمام مائدة مليئة بكل ما يمكن للإنسان أن يحلم به من أطايب الطعام، قال فجأة

بصوت خافت: "لماذا لا أشعر بشيء؟" ضحك الطباخ، حسبها مزحة. لكن طلال لم يكن يمزح.

في الأيام التالية، بدأ يشعر بشيء غريب: الألوان باهتة، النكهات عديمة، الموسيقى مجرد ضوضاء مزعجة، حتى النساء الجميلات حوله... مجرد وجوه لا تثير أي إحساس. ذهب إلى طبيب نفسي، فقال له الأخير: "قد تكون مصابًا بالاكتئاب الحاد." فأجابه طلال بنبرة فارغة: "أنا أغنى رجل في العالم، ألا يفترض أن أكون أسعدهم؟" لكن الإجابة كانت في داخله، في روحه التي خفتت.

في إحدى الليالي، جلس وحده، يحدق في لوحة فنية ثمينة اشتراها للتو، وقال بمرارة: "كل شيء حولي يلمع... إلا روحي. لقد أصبحت أغنى رجل في العالم، لكنني أفقرهم إحساسًا." ومنذ ذلك اليوم، بدأ يشتري أشياء أغلى... لا لأنه يريدها، بل لأنه يحاول أن يشعر. يحاول... أن يعود إنسانًا، إنسانًا سعيدًا كما كان في الماضي، قبل أن تبتلعه الثروة.

دانا: وحش الجمال

كانت دانا دومًا تلك الفتاة التي تختبئ من الكاميرا، وتضحك بخجل حين يُذكر شكلها. كبرت وهي تقارن نفسها بكل فتاة جميلة تراها، تُجري حسابًا خفيًا في عقلها، وتخسر دائمًا السباق الوهمي. في القبو، كانت أمنيتها جاهزة، لم تتردد لحظة: "أريد أن أكون الأجمل... على الإطلاق."

وفي الأيام الأولى... تحققت الأمنية بشكل مذهل. استيقظت في الصباح التالي وهي تشعر أن وجهها مختلف، ملمس بشرتها كالحرير، تناسق جسدها مثالي، حتى انعكاسها في المرآة جعلها تبكي من الفرح. الجمال... الجمال الحقيقي... الذي كانت تتخيله دومًا، أصبح لها.

خرجت إلى الشارع، وكل من يراها يحدق، ينبهر، يصمت، أو يغمغم بكلمات الإعجاب. لكن مع الوقت... بدأ كل شيء يتغير. زميلتها المقربة بدأت تتجاهلها، ثم هجمت عليها بكلمات قاسية غير مبررة، مليئة بالحسد. صديقها الحميم الذي طالما دعمها، بدأ يتهمها بالتكبر والخيانة، ويخترع أكاذيب عنها.

الجميع أصبح ينظر إليها بعيون ممتلئة بالحقد... لا الحب. في البداية ظنت أنه مجرد سوء تفاهم، غيرة عابرة. لكن شيئًا فشيئًا، أدركت الحقيقة المرة: جمالها أصبح لعنة. كل من يراها يشعر بالنقص، وكل من أحبها سابقًا... أصبح يكرهها بلا سبب، مدفوعًا بالغيرة العمياء. أصبحت وحدها، تمامًا.

تجلس في غرفتها، تحدق في المرآة، ترى وجهًا بلا عيب... لكنه لا يشبهها، لا يحمل روحها. قالت لنفسها بصوت متهدج: "أخيرًا أصبحت ما أردت... فلماذا لا أحتمل نظراتهم؟ لماذا أبكي حين أرى عينيّ الخاليتين من الدفء؟" وفي دفترها كتبت: "الجمال جعلني مرئية للعالم... لكنه أخذ من قلبي كل من كنت أراهم، وجعلني وحشًا في عيونهم."

قدر يوسف الأخير

لم يعد أحدهم كما كان. تحققت الأمنيات... لكنهم لم يعودوا ليخبروا العالم بذلك، أو ربما لم يعد أحد منهم يملك الرغبة في الكلام.

* رائد تاه في وهج الشهرة حتى نسي اسمه وذاته.

* سيلين بكت في صمت بعدما صار الخلود لعنة النسيان والألم الأبدي.

* دانا تأملت وجهها في المرآة، فلم تعرف من فيه، غارقة في عزلة الجمال القاتل.

* طلال عدّ الذهب بين يديه كأنه رماد بلا قيمة، خاليًا من أي شعور.

أما يوسف، فقد ظلّ خارج اللعبة. أو هكذا ظنّ.

مرت الأعوام، وأصاب الأرض صمت لم يعد يقطعه سوى صوت الريح العابرة وصدى الذكريات الباهتة.

عاد يوسف وحده إلى المكان المهجور، حيث لا يجرؤ أحد على الاقتراب. وقف أمام الآلة التي غيّرت مصير الجميع، والتي ما زالت تنبض بضوء خافت وغامض.

قرأ العبارة التي يعرفها جيدًا، والتي طالما حفرت في ذاكرته:

"لكل أمنية ثمن... والثمن لا يُكشف إلا بعد فوات الأوان."

لم يتحرك يوسف، لم يلمس الآلة. ثم أخرج ورقة مطوية من جيبه. كتب شيئًا عليها لم يره أحد من قبل. ربما كانت أمنية. وربما كانت شيئًا آخر.

الشاشة لم تضيء. لم تصدر الآلة أي صوت. لكن يوسف ابتسم ابتسامة غامضة، مليئة بالراحة والمرارة في آن واحد. ثم استدار... ورحل، وخطواته ثابتة هذه المرة.

وظلّت الآلة هناك، صامتة... تنتظر.

همس يوسف لنفسه وهو يبتعد، وصوته يضيع في الريح: "الأمنيات لم تكن الهلاك... بل النسيان بأن كل شيء له ثمن، وأن أكثر الأثمان فتكًا، هي تلك التي ندفعها دون أن ندري."

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

نادر: ظلّ المدينة.. وكوارثها!

أستيقظ كل صباح على نغمة بوق خيالية تهدر في أروقة عقلي، لا أحد يسمعها سواي. إنها لحني الخاص، تذكير دائم بأنني "المختار"، البطل الذي وُلد لينقذ البشرية من الظلام الدامس... أو على الأقل من صراصير المطبخ "الطائرة" المخيفة.

اليوم، أعلنت الأبواق مهمة عظيمة: قطة عالقة على شجرة ! ارتفعت معنوياتي إلى عنان السماء! أخيرًا، فرصة ذهبية لأُبرهن أنني لم أُخلق لهذه المدينة التي تضج بالمدنيين عديمي الخيال.

سارعت لارتداء معطفي القرمزي، التحفة الفنية التي نسجتها أنامل أمي بعد أن بحت لها بسر مصيري العظيم. (هي للآن تظن أن اللون الأحمر يزيد من سرعة توصيل الطلبات). فتحت نافذة غرفتي في الطابق الثاني، وأطلقت قفزة بطولية، للمرة الرابعة هذا الشهر. سمعت تحطم المزهرية الخزفية الثمينة، وصرخة جارتنا الحادة، السيدة أم فيصل: "ارجع نام يا مجنون! لا تكسر لي شيئًا آخر!". لكن لا وقت للرد على تفاهات الجارة. هناك روح بريئة تنتظر منقذها!

بعد ساعة، كانت الشجرة المسكينة محترقة جزئيًا، والقطة الحذرة قد فرت بجلدها. جدتي، بجوارها خرطوم ماء منفجر، كانت تبكي بصوت عالٍ بينما أنا أصرخ: "ابتعدوا! سأقضي على الوحش الناري!". لكن الجار المسالم كان يمسك بي الذي لم يطلب مني المساعدة أصلًا....وبعد دقائق هربت كالعادة .

لكن لا بأس، فالأبطال الحقيقيون لا يُفهمون بسهولة. أدركت أن العالم لم يكن مستعدًا بعد لقدراتي الخارقة.

في طريقي للعودة من "عملية الإنقاذ" تلك، تلقيت نداءً داخليًا آخر. هذه المرة من أعماق قلبي... أو ربما كان من تطبيقي البنكي ينبهني بأن حسابي مكشوف.

لا يهم! شعرت أن شيئًا جللًا على وشك الحدوث.

وصلت إلى الساحة العامة لأجد حشدًا يتجمع. الدخان الأسود يتصاعد من صندوق قمامة معدني، وامرأة تصرخ بذعر: "اتصلوا بالإطفاء!". أغمضت عيني للحظة، مستحضرًا قواي الخارقة. "هذه لحظتك يا نادر البطل ، إنها مهمة مصيرية!".

صرخت بأعلى صوتي، صوتي يرن كجرس إنذار: "ابتعدوا أيها المدنيون! هذا فخّ... إنها قنبلة دخانية! أعداء العدالة يحاولون بث الرعب في قلوبكم!". قفزت ببطولة داخل علبة القمامة المشتعلة، محاولًا "نزع فتيلها".

ثم خرجت راكضًا بعد ثانيتين فقط، يدي تحترق، وشعري يتطاير منه الدخان، وأنا أصرخ: "إنها فخّ حراري! خطة محكمة لاستهداف الأبطال!".

لاحقًا، عرفت أن أحدهم رمى أعقاب سجائره في الصندوق، وأن الإطفائيين وصلوا بعد دقيقتين بالضبط، بينما كنت أنا في الصيدلية، أطلب مرهمًا خاصًا "للأبطال الخارقين".

في الليل، جلست أمام المرآة، أعدّل قناع العين البلاستيكي الذي اشتريته من محل الألعاب، وأقول لنفسي بجدية بالغة: "ربما لم أنقذ العالم اليوم... لكني أخفته قليلاً. أليس هذا كافيًا كبداية؟".

وهنا يأتي سامي. موظف بسيط في البلدية، يعاني من ضغط الدم، ويملك موهبة نادرة في رفع حاجبه الأيمن حين يشعر بالإحراج من تصرفاتي. وهي موهبة يستعملها كثيرًا، لأني "أُحرجه" يوميًا وبشكل مستمر.

كان سامي يتبعني في الساحة العامة، يهمس وهو يتصبب عرقًا: "عد إلى المنزل يا نادر، أرجوك! آخر مرة تصديتَ فيها لـ(الخطر) أحرقنا محل العصير بالكامل!".

أجبت بجدية، مشيرًا بإصبعي: "ذاك كان ضروريًا يا سامي! لقد كان صاحب المحل يتحدث عن (عصير القوة)... من الواضح أنه كان يحاول تطوير مصل خارق يهدد البشرية!".

هز سامي رأسه بيأس: "كان عصير جزر يا نادر... جزر طازج!".

كل مغامرة لي تبدأ بنداء داخلي صاخب، وتنتهي بسامي يركض خلفي وهو يلوح بتقارير التعويضات والتلفيات، ويصرخ بيأس: "لا تلمس شيئًا! فقط لا تلمس شيئًا يا نادر!".

في المرة التي حاولت فيها "تفكيك قنبلة صوتية" في الشارع، اتضح أنها مكبر صوت لفرقة موسيقية تغني في حفل خيري. دمرت الحفل بالكامل، وتلقى سامي إنذارًا شديدًا من رئيسه، وقال لي بعدها وهو يكاد يبكي: "قسم مكافحة الشغب اتصل يسأل إن كنا نحتاج دعم نفسي... هم يظنون أننا تحت تأثير المخدرات!".

لكن رغم كل شيء، سامي لا يتركني. ربما لأنه يشعر بالمسؤولية تجاهي، أو لأنه يعلم تمامًا أنني من دون إشراف مباشر، قد أظن أن الميكروويف مفاعل نووي صغير وعلى وشك الانفجار.

في اليوم التالي، بينما كنت أتنكر في زي "الظل الخارق" – وهو مجرد عباءة حمّام سوداء واسعة مع فتحة صغيرة للهاتف – لمحت رجلًا عجوزًا يحاول عبور الشارع ببطء شديد.

فرصة ذهبية!

صرخت بصوت جهوري: "ابتعدوا أيها المارة! سأقوم بمهمة (النقل الآمن للعناصر البشرية الضعيفة)!". ركضت نحوه، حملته بين ذراعي بقوة خارقة، انطلقت بسرعة (بطيئة نسبيًا بسبب الوزن الزائد)، وانزلقت بسخرية القدر على قشرة موز خائنة.

سقطنا كلانا، لكنه هبط فوقي، بخير تمامًا. أنا؟ لا بأس، فأبطال العدالة يملكون عمودًا فقريًا من التيتانيوم... أو سيملكون بعد ثلاث عمليات جراحية مكلفة.

جاء سامي وهو يلهث، وجهه شاحب: "نادر! هل أنت بخير؟ هل كسرت شيئًا هذه المرة؟".

نظر العجوز إليّ بوجه عابس تمامًا وهو ينهض من فوقي، وقال بلهجة لاذعة: "لو كنت مشيت وحدي، لكان أفضل لي ألف مرة من عملك هذا يا متهور عديم المسؤولية!".

قلت بسخرية لا تخلو من الفخر: "شكرًا أيها الجد، لا داعي لطلب الإسعاف، فأنا بخير! الأبطال لا يتأثرون بهذه الكدمات البسيطة!".

هز سامي رأسه ببطء، رافعًا حاجبه الأيمن للمرة الألف اليوم، وقال بسخرية مريرة: "تستحق هذا أيها البطل الخارق. تستحق كل كدمة وكل كسر!".

عدت إلى المنزل مرفوع الرأس (على كرسي متحرك طبعًا)، أردد في سرّي موسيقى النهاية البطولية لمغامراتي... ثم شممت رائحة حريق قادمة من المطبخ.

أسرعت – نسبيًا – نحو المطبخ، لأجد أمي تحاول إطفاء قدر يحترق على الموقد، وهي تصرخ بصوت درامي كعادتها: "يا ساتر! الأكل انحرق! يومي ضاع!".

صرخت على الفور، متخذًا وضعية الأبطال: "ابتعدي يا أمي! هذه مهمة للمنقذ! اتركيه لي!".

صاحت أمي بيأس: "نادر، لا تعاود جنونك...".

لكنني كنت قد قفزت بالفعل (قفزة كرسي متحرك لا بأس بها)، أمسكت بالقدر ببطولة... ثم رميته من باب المطبخ دون تفكير، لأسقط أنا خلفه، وأتدحرج مباشرة إلى شجرة التين العجوز في فناء المنزل.

كُسرت يدي اليمنى هذه المرة.

وبينما كنت أصرخ "لقد نجونا من الخطر!"، كانت أمي تصرخ من الباب، صوتها يرتفع غضبًا: "يا ابن الـ... هذا قدر جديد! كنت أطبخ كوسا طازجة! دمرتها يا مجنون!".

وجاء سامي في المساء، يحمل معي جبيرة جديدة، وهو يتمتم كالمعتاد، عيناه تكادان تخرجان من محجريهما: "كل أسبوع عضو جديد. بعد فترة ستصبح بطلًا مركبًا يا نادر... بطلًا من قطع غيار!".

ابتسمت له ابتسامة عريضة وأنا أرفع يدي المكسورة كأنها راية نصر عظيمة. "سامي... الأبطال لا يتوقفون عند العظام المكسورة... بل يبدأون بها مسيرتهم نحو المجد!".

هزّ رأسه ببطء، وقال ببرود قاتل: "واضح. واضح جدًا يا بطل. واضح جدًا.".

في نهاية اليوم، جلست في غرفتي، جبيرة في اليد اليمنى، كيس ثلج على الرأس، وقلبي يفيض بالفخر.

كتبت في دفتري السري، تحت عنوان: "إنجازات اليوم العظيم للبطل نادر، ظلّ المدينة!":

* إنقاذ سيد عجوز (مع بعض الكدمات وألم في العمود الفقري).

* حرق حفل موسيقي (عن غير قصد... لكنه كان فخًا!).

* تحطيم قدر الكوسا (ولكن أنقذت أمي من كارثة!).

* كسر اليد اليمنى (تضحية بطولية من أجل الصالح العام).

ثم وقّعت تحتها باسمي الحركي الجديد: "نادر... ظلّ المدينة".

سمعت صوت أمي من المطبخ، تحذيرًا جديدًا: "نادر! لا تقترب من السخان الكهربائي! لو لمست زرّه مرة ثانية، هفجّرك بنفسي هذه المرة!".

أغلقت الدفتر بحذر، وابتسمت لنفسي في المرآة.

العالم قد لا يعرفني بعد... لكنه سيتذكّرني لاحقًا، حين يرى الكوارث الغريبة تحدث دون تفسير منطقي.

أنا لست بطلًا مثل الآخرين.

أنا... بطل حسب الظروف.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

أكاديمية الأبطال الفاشلين

في عالمٍ لم يولد فيه أحد بلا قوة خارقة، كان النجاح هو القاعدة الوحيدة، والفشل وصمة عار. لكن، ماذا لو وُلدت بقدرة لا تجلب لك سوى المتاعب؟ أن تطير فقط عندما تُزفر؟ أن تقرأ الأفكار بعد فوات الأوان بعشر دقائق؟ أن تتحول إلى أي كائن حي، لكن تنسى كيف تعود إلى هيئتك الأصلية؟

هؤلاء ليسوا أبطالًا في نظر الناس، بل نكات تمشي على قدمين.

ولهذا أُنشئت "أكاديمية فونتاين للأبطال ذوي القدرات الخاصة"... اسم طويل يستر حقيقة مرة: إنها أكاديمية الأبطال الفاشلين.

وهنا تبدأ الحكاية...

اسمي نضال، عمري سبعة عشر عامًا. حلمي الأوحد؟ أن أحلق في السماء وأحمي العالم من الأشرار، تمامًا كبقية البشر "العاديين". لكن بدلًا من قوة الطيران التي كنت أتمناها، حصلت على ما يشبهها... نوعًا ما... تقريبًا.

أستطيع الطيران، نعم. لكن فقط عندما أزفر.

ذات مرة، حبستُ أنفاسي طوال حصة دراسية كاملة. وعندما زفرتُ بقوة في الاستراحة، انطلقتُ كصاروخ نحو السقف، لأعلق في مروحة الفصل. علق

حذائي فيها وظل يدور بمفرده حتى نهاية الدوام. بالطبع، لم تمر الحادثة مرور الكرام. أُرسلتُ فورًا إلى "أكاديمية فونتاين" اسمٌ مزخرف لمدرسةٍ تعجُّ بالمجانين والفاشلين أمثالي.

في أول يوم لي، التقيتُ بزميلي في الغرفة، شاكر، الذي يقرأ الأفكار... لكن بعد خمس دقائق من تفكير الشخص فيها.

سألته: "وين الحمام؟"

ردَّ بعد خمس دقائق بالتمام: "آه... كنت تفكر في الحمام؟ إنه من جهة اليسار، بعد غرفة الأستاذ الذي يتحدث بالمقلوب."

نعم، حتى الأستاذ هنا يتحدث بالمقلوب. والغريب أنه الوحيد القادر على فهم ما يقوله.

في أكاديمية فونتاين، لكل طالب ملف، وكل ملف يحتوي على عبارة واحدة تلخص مأساته.

وهؤلاء بعض الأبطال الفاشلين الذين حالفني "الحظ" بالالتقاء بهم:

* شاكر - قارئ الأفكار البطيء: عبارته في الملف: "يرى ما تفكر فيه... فقط بعد أن تنسى أنك فكرت فيه."

* لمى - الملقبة بـ"الزوبعة النائمة": قوتها؟ تتحكم بالرياح، لكنها لا تعمل إلا أثناء نومها العميق. مرة، نامت في الصف، وقلبتة رأسًا على عقب، وما زالت تنكر مسؤوليتها حتى اليوم.

* قاسم - الرجل الشفاف... جزئيًا: يختفي، لكن ساعديه وقدميه لا تختفيان . يراه الناس وهو يمشي كأنه قميص طائر يتبعه حذاءان .

* فرح - المتحولة الصوتية: بإمكانها تقليد أي صوت، لكن... فقط صوت جهاز الميكروويف. صفقت لها الإدارة بحرارة ذات مرة لأنها "خبزت بطاطا بنجاح" – بفضل صوتها.

* عُدي - المتحول إلى فأر: قوة رائعة في البداية... لكن مشكلته الوحيدة؟ لا يعرف كيف يعود بشريًا إلا إذا صرخ أحدهم عليه بحدة: "ارجع يا ولد!"

كلنا مختلفون، وكلنا نحمل أوزار فشلنا على أكتافنا. لكن في أعماقنا، ما زلنا نحلم... أن نحظى بفرصة واحدة فقط لنثبت أننا أبطال، ولو بالصدفة البحتة.

في تمام الساعة الثانية ظهرًا، دوّى جرس الطوارئ في الأكاديمية.

نضال: "هل هذا جرس حريق؟"

شاكر (بعد خمس دقائق): "أعتقد أنك كنت تتساءل إن كان هذا جرس حريق."

تجمع الطلاب الفاشلون في ساحة التدريب. ظهر المدير فارس فونتاين، رجل يرتدي بدلة لامعة ويحمل عصًا مضيئة بلا أي سبب منطقي.

قال بجدية زائفة: "أبطال فونتاين! مهمتكم الأولى... حماية صندوق البيتزا من الغربان الطائرة الخارقة!"

صمت تام.

فرح همست بصوت ميكروويف خافت: "تن... تن... تن... المهمة بدأت."

الخطة؟

نضال سيطير فوق المبنى (بشرط أن يزفر بشدة عند الإقلاع).

شاكر سيتنبأ بحركات الغربان (لكن بعد أن تهاجم وتنهي مهمتها).

قاسم سيختبئ في الظل، بنصف شفافيته المعتادة.

لمى... سننتظر أن تغفو حتى تعمل قواها.

وعدي سيتحول إلى فأر ويحمل البيتزا (طالما أحدهم لا ينسى أن يصرخ عليه ليعود بشريًا في الوقت المناسب).

ما الذي حدث فعليًا؟

نضال زفر بقوة وطار... خمسة أمتار فقط، ثم سقط فوق صندوق البيتزا، ساحقًا إياه نصف سحقة.

الغربان هاجمت. شاكر صرخ: "كنتُ أعلم أنهم سيهاجمون!" (بعد خمس دقائق من الهجوم).

لمى كانت مستيقظة طوال الوقت، الرياح لم تتحرك قيد أنملة، لكن مزاجها انقلب رأسًا على عقب.

قاسم حاول التخفي، لكن الناس رأت قميصه يصرخ بوضوح: "لا تلمسوا البيتزا!"

عدي تحوّل إلى فأر، سرق قطعة، وهرب داخل الجدار ولم يعد حتى الآن.

في النهاية، أُكلت البيتزا، وانتصرت الغربان، واعتبرت الأكاديمية المهمة... نجاحًا نسبيًا.

قال المدير فارس بابتسامة عريضة: "المهم أنكم جربتم... وهاجمتكم الغربان بالفعل، وهذا تقدم ممتاز!"

بعد "النجاح النسبي" في حماية البيتزا، اجتمع الفريق في القاعة العامة للأبطال . وقف المدير فارس أمامهم مجددًا، يبتسم بثقة وكأنهم حرروا كوكبًا بأكمله.

قال بصوته المسرحي المعتاد: "مهمتكم التالية، أبطال فونتاين... إنقاذ سمكة ذهبية من الغرق!"

نضال رفع حاجبًا متعجبًا: "السمك ما يغرقش يا أستاذ..."

قاطعه فارس بسرعة: "هذه سمكة مختلفة... إنها تعاني من رهاب الماء."

نعم. سمكة ذهبية... تخاف الماء... هربت وقفزت من حوضها... وتعلقت بشرفة الطابق الخامس. وهؤلاء الفاشلون يجب أن يعيدوها إلى الحوض دون أن تُبلّل قطرة ماء واحدة.

الخطة؟

نضال يزفر ليرتفع إلى الشرفة (لكن عليه الزفير بدقة حتى لا يفزع السمكة).

فرح تقلّد صوت "باب يُفتح" لتطمئن السمكة (لأن صوت الميكروويف الخاص بها لن يفيد هنا).

قاسم يحاول التخفي ونزع السمكة دون أن تلاحظه.

لمى ستأخذ قيلولة قريبة، آملين أن تُطلق نسمة هواء قوية تُسقط ورقة ناعمة تُغطّي السمكة حتى لا ترى الماء.

عُدي... سيراقب الوضع من السقف. كفأر، طبعًا.

النتيجة؟

نضال زفر فجأه فطار، وارتطم بالشرفة بقوة، مما جعل السمكة تقفز بفزع وتتشبث بزهريّة.

فرح أصدرت صوت الميكروويف "تن تن تن"... فظنت السمكة أن نهايتها قد اقتربت.

قاسم اختفى جزئيًا، فظنت السمكة أن "يدًا مقطوعة" تطاردها، وقفزت في الهواء رعبًا.

لحسن الحظ، عطست لمى أثناء نومها، فهبت نسمة قوية رمت السمكة في الحوض بدقة مذهلة... لكنها بلّلت الجميع بالكامل.

الخاتمة؟

أعلن فارس فونتاين في مكبر الصوت بفخر: "المهمة نجحت! نعم، السمكة ما زالت خائفة... لكنكم أعدتموها للحياة. هذه بطولة!"

نضال تمتم لنفسه: "بطولة غريبة..." لكن داخله، شعر بشيء غريب يشبه الفخر... أو ربما كان مجرد الغاز الذي خرج مع الزفير.

بعد "النجاح" في إنقاذ السمكة الذهبية، عاد الفريق إلى الكافتيريا لتناول الغداء. كان الطبق الرئيسي: نقانق مطاطية بالصلصة الغامضة.

جلس نضال مع أصدقائه على الطاولة المعتادة بجوار نافذة مكسورة (لم يُصلحها أحد منذ أن علقت لمى في حلم إعصار).

نضال متذمرًا: "أنا مش فاهم... كيف سمكة عندها رهاب ماء؟! يعني ليش إحنا بالتحديد اللي علينا نهاجم غربان وننقذ سمك مكتئب؟"

شاكر (بعد خمس دقائق): "أعتقد أنك تتساءل عن السمكة... غريب فعلًا."

فرح حاولت طمأنته بصوت الميكروويف: "تن تن تن."

نضال نظر لها بيأس: "هذا صوت وجبة انتهت مش حياة بدأت، يا فرح."

في هذه اللحظة، صرخ عدي من فوق الطاولة (وقد عاد من شكل الفأر للتو): "يا جماعة! أنا نسيت كيف آكل مثل البشر! هل أمسك النقانق بأسناني أم بيدي؟"

قاسم، النصف شفاف، مد يده ليأخذ الملح، لكنه نسي أن الناس لا يرون إلا يديه ، فصرخت زميلة على الطاولة المقابلة بذعر: "شبح سرق الملح!"

أما لمى، فوضعت رأسها على الطبق ونامت فورًا... انقلبت الصينية وطارت الصلصة الغامضة على الجدار، وظهرت عليها فجأة صورة للمدير فارس وهو يبتسم.

شاكر قال ببطء: "أعتقد أن هذه... نبوءة."

بعد سلسلة "النجاحات الغريبة"، قرر المدير فارس فونتاين أن الفريق بحاجة إلى "تأديب بطولي". جمعهم في ساحة التدريب وقال بابتسامة مرعبة: "تدريب اليوم عنوانه: إنقاذ دُمية من قدر يغلي. من يفشل؟ عليه تنظيف الحمامات النفسية في جناح المتحولين!"

نضال مصدومًا: "يعني... دمية؟ وبتغلي؟!"

فارس بثقة: "نعم. اسمها نونو. والقدر سحري، يغلي ليس بالنار... بل بخيبة الأمل!"

قاسم حاول أن يختفي ويصل للدُمية، لكنه تعثر لأن سرواله الشفاف كان ملفوفًا برجله بشكل كوميدي.

شاكر قال: "أشعر أن نونو تنادي علينا!" (بعد أن ذابت نصفها في القدر تمامًا).

فرح أطلقت "تن تن تن"... فغلى القدر أكثر بشكل عجيب!

لمى نامت في الزاوية، فاندلع إعصار صغير قلب الطاولة وطار القدر، وسقطت نونو الذائبة جزئيًا في وجه فارس نفسه.

أما عدي؟ تحول لفأر وأكل جزءًا من الدمية قبل أن يفهم أنه لا يؤكل!

في الأخير؟

تم معاقبتهم جميعًا... لكن لم يُسمح لهم بتنظيف الحمامات، لأن حتى هذا يحتاج تدريبًا خاصًا، على ما يبدو.

في أحد الأيام، سُمعت صفارات الإنذار مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن مديرهم هو من استدعاهم. بوابة الأكاديمية انفتحت ذاتيًا، وانطلقت رسالة غريبة عبر مكبر الصوت: "تم تفعيل مهمة الطوارئ 404... النظام ينهار، الأبطال الحقيقيون مفقودون... نحتاج أي أحد."

نضال بتفاؤل نادر: "أخيرًا... مهمة بدون بيتزا ولا سمك ولا دمى."

قاسم بقلق: "بس... غرفة 404؟ لا أحد يذكرها أبدًا."

لمى، بنصف وعي: "أليست هي الغرفة التي تخاف الإدارة فتحها؟"

دخلوا غرفة 404... ووجدوا أنفسهم في مواجهة كيان رقمي خارق، تجسيد حي لفشل كل بطل سابق طُرد من الأكاديمية.

الكيان قال بصوت متداخل ومخيف: "أنتم فاشلون... مثلي تمامًا. لكنني اخترت أن أنتقم، فماذا ستفعلون؟"

وهنا، ولأول مرة... فعلوا شيئًا غير متوقع على الإطلاق:

نضال زفر بقوة وطار مباشرة نحو الزر الرئيسي للكيان!

لمى نامت بالصدفة في تلك اللحظة، فأطلقت رياحًا عاتية دفعت العدو بعيدًا!

فرح أطلقت صوت "تن تن تن" فأربكته، فاعتقد المسكين أن وقت "انتهائه" قد حان!

قاسم ظهر كاملًا أخيرًا، وقال بصوت عالٍ: "أنا هنا!" (فخاف الكيان من الوضوح المفاجئ وغير المتوقع).

عدي قفز كفأر وأغلق النظام من الداخل، منهيًا كل شيء!

و... نجحوا.

عادوا متسخين، متعبين، نصفهم فاقدًا للوعي... لكن فارس فونتاين قال بابتسامة نادرة وصادقة: "ربما أنتم فاشلون... لكن اليوم، فشلتم بطريقة أنقذت الأكاديمية!"

وتغيّر اسمهم من "أبطال فونتاين الفاشلين" إلى "أبطال فونتاين المختلفين".

نضال تمتم وهو يأكل بيتزا باردة : "المهم... ما في سمك تاني، صح؟"

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

زائر من المجرة المجاورة

أنا زاي، كائن فضائي من كوكب بعيد، يدعى"بلوتوكس" حيث تتلألأ النجوم كعيون حارسة في سماء أبدية السكون.

اليوم لم يكن مجرد يوم عادي في تقويمنا الكوني؛ اليوم كان إيذانًا بانطلاق مغامرتي الكبرى، رحلة إلى كوكب الأرض، تلك النقطة الزرقاء الشاحبه التي ترددت حولها الحكايات والأساطير عبر مجرات لا تحصى. كوكبٌ سمعنا عنه من أفواه النجوم المجاورة، يضجّ بالحياة، بالماء والهواء والنباتات، وتلك الكائنات الغريبة التي تُدعى "البشر".

قيل إنهم يتصرفون بطرق تفوق أغرب تخيلاتنا، وها أنا ذا هنا، لأفك شفرة وجودهم.

هبطت مركبتي الفضائية، متخفية في صمتٍ مريب، وسط حديقة غنّاء، تكتسيها ألوانٌ زاهية وتظللها أشجارٌ باسقة كأنها قلاع خضراء.

قبل أن أُغادر ملاذي الآمن، اتخذت قرارًا مصيريًا: تفعيل تقنية التحول المتقدمة في مركبتي، لأتخذ هيئة بشرية نعم هيئة بشرية أنا متحمس لهذا .

فجأة، شعرت بكياني يتمدد ويتغير. يدان وأرجل بدت وكأنها نُسجت من مادة جديدة، مطابقة لتلك التي لدى البشر. نظرت إلى المرآة المحمولة، تلك الأداة

التي لا تُفارقني، فرأيت وجهًا غريبًا يتأملني، شعرًا كثيفًا ذا لونٍ داكن، وأسلوب لباس لم أعهد مثله في سجلات حضارتنا.

نزلت إلى الحديقة، أخطو خطواتي الأولى في جسدي الجديد، وكل حركة بدت غريبة وثقيلة. شعرت وكأنني كائنٌ عملاق يحاول المشي في حقل من الأزهار الصغيرة. لاحظت أنظار البشر تتسرب نحوي بدهشة، بعضهم ارتسمت على وجوههم ابتسامة خافتة، بينما تجاهلني آخرون وكأنني مجرد عابر سبيل عادي في زحام عالمهم. انتابني شعورٌ متضارب: هل نجحت في الاندماج؟ أم أن غرابة هيئتي ما زالت تفضحني؟

أول ما استوقفني كان مشهد زهرة عملاقة، تفوح منها ألوانٌ زاهية كأنها قنابل من البرح والألوان المتفجرة. ما أن اقتربت منها حتى انبعثت منها رائحة غريبة لم أعهد مثلها، جعلتني أشعر وكأنني ابتلعت مليون موجة ضوئية دفعة واحدة، مزيجٌ من الإحساس بالانفجار والتوهج في آن واحد.

وبينما كنتُ أغرق في نشوة هذه الرائحة الارضية الغريبة، اخترق الصمت صوتٌ عالٍ ومفاجئ.

كان كلبٌ يلهث، يُشمر أنيابه، وينبح عليَّ بغضب! حاولتُ أن أشرح له، بلغة الإشارات الفضائية التي كنتُ أتقنها، أنني مسافرٌ قادم بسلام، وأن لا نية لي في إيذائه، لكنه لم يفهم شيئًا.

جنّ جنوني! حاولتُ الهرب، لكن أرجله السريعة وشكلي البشري الجديد، الذي كان ما زال غريبًا عليّ، جعلاني أركض بشكلٍ غير متوازن وبطيء، كطفل يتعلم المشي.

بعد هذا الحادث الغريب والمُحرج، تجولتُ قليلًا أبحث عن بقعة هدوء، مكان يمكنني فيه استيعاب كل هذه التفاصيل الجديدة. رأيت مبنى صغيرًا، تتلألأ زجاجاته في ضوء الشمس، مليئًا بالطاولات والكراسي. علَت لوحةٌ خشبية فوق مدخله، كُتب عليها بخطٍ أنيق: "كوفي كوزي". ترجمتُها على الفور في نظام الترجمة الفضائي الخاص بي: "معبد القهوة المقدسة".

اقتربتُ من المنضدة، ووقفتُ خلف مجموعة من البشر ينتظرون دورهم، كل منهم يمسك بوعاءٍ أو جهازٍ صغيرٍ يُصدر ضوءًا. بدأتُ أستمع إلى أحاديثهم وأوامرهم الغريبة:

– "واحد لاتيه بدون كافيين، مع ثلج زيادة، وشوية قرفة، لو سمحت."

ما هذا؟! هل هذه تعويذة سحرية؟ هل يحضرون مشروبًا أم يستدعون مخلوقًا غامضًا من عالم آخر؟! بدا الأمر وكأنه طقسٌ معقدٌ لا أدرك كنهه.

وعندما حان دوري، شعرتُ بالتردد يعتصرني. ماذا أطلب؟ لا أعرف شيئًا عن مشروباتهم! ثم جمعتُ شتاتي وقلتُ بأفضل نطق تعلمتُه من ملفات الترجمة الفضائية، بصوتٍ بدا غريبًا حتى على أذني:

– "أريد... واحد قهوة بدون ماء، بدون قهوة، بدون شيء. فقط كوب فارغ، من فضلك."

نظر إليَّ النادل بجمودٍ غريب، كأنني نطقتُ بأكثر العبارات جنونًا في تاريخ هذا المقهى، ثم قال ببرود:

– "أكيد... اجلس هناك."

جلستُ، وأنا أشاهد الناس من حولي. كانوا يحملون أكوابًا غريبة، ويتحدثون إلى صناديق صغيرة تلمع في أيديهم – الهواتف، كما أدركتُ لاحقًا. أحدهم ضحك فجأة، بصوتٍ عالٍ ومفاجئ، وقال للصندوق الصغير: "هههههه".

هل هذه ضحكة حقيقية؟ أم مجرد شفرة سرية لا أفهمها؟ سارعتُ بتدوين ملاحظة سريعة في قاعدة بياناتي الداخلية: "البشر يضحكون من دون سبب واضح، ويرسلون رموزًا ضاحكة لأشياء لا تبعث على الضحك!"

بينما كنتُ أتأمل تلك الطقوس العجيبة، التي لا يبدو لها أي منطق فضائي، اقترب مني بشرٌي. كان شابًا يحمل كوبًا مما بدا أنه "قهوة"، وعلى وجهه ابتسامة ودودة. قال لي بصوتٍ واضح:

– "أول مرة بشوفك هون، جديد بالمنطقة؟"

شعرتُ بإثارة عارمة! هذه هي الفرصة النادرة التي طالما حلمتُ بها: تواصل حقيقي ومباشر مع عيّنة بشرية! سارعتُ بفتح الدليل الفضائي لكيفية إجراء محادثة بشرية في عقلي، استعرضتُ بياناته بسرعة فائقة. قرأتُ بتأنٍ:

* الخطوة 1: ابدأ بالتحية.

* الخطوة 2: استخدم جملة شائعة مثل "الجو جميل اليوم".

فقلتُ بحماسٍ لم أستطع إخفاءه، وبنبرة عالية بعض الشيء:

– "الجو جميل اليوم، خصوصًا بالنسبة للغلاف الجوي من النوع O2-N2!"

تجمد الشاب في مكانه، وبدت على وجهه علامات الدهشة المختلطة بالارتباك، ثم ابتسم مجددًا بتوتر وقال:

– "هاها... عندك روح فكاهة غريبة."

في تلك اللحظة، أحضر النادل الكوب الذي طلبته. أخذتُ رشفة منه. كان مُرًا جدًا! طعمٌ لاذع حرق لساني، وكدتُ أصرخ بصوتٍ عالٍ:

– "هل هذه مشروب؟! أم اختبار كيميائي؟!"

لكنني تذكرتُ بسرعة قاعدة أساسية من قواعد الاندماج البشري: "لا تصرخ، هذا تصرف غير بشري. فقط أومئ برأسك وابتلع الألم." وهكذا فعلت، أومأتُ برأسي في محاولة للظهور بمظهر طبيعي، بينما كنتُ أبتلع مرارة الطعم وألم التجربة.

ثم سألني الشاب، وعيناه تحملان فضولًا ممزوجًا بحذر:

– "شو بتشتغل؟"

"ما معنى هذا السؤال؟" تساءلتُ في داخلي. هل يريد مني أن أعمل لديه؟ هل نحن في مفاوضات عمل مفاجئة؟

قلتُ بتفكيرٍ سريع، محاولًا دمج الحقيقة مع ما أظنه مقبولًا في عالمهم:

– "أنا باحث فضائي في مهمة سرّية لتوثيق الحياة على كوكبكم قبل احتلاله... أقصد... زيارته!"

ضحك الشاب بصوتٍ عالٍ هذه المرة، وبدا أن الضحكة حقيقية، وقال:

– "واضح إنك ممثل ممتاز! في عرض مسرحي جديد ؟"

ابتسمتُ بتوتر بالغ، وأنا أدرك أنني فشلت في محاولتي الأولى في التأقلم معهم .

دوّنتُ ملاحظة مهمة في قاعدة بياناتي: "البشر لا يصدقون الحقيقة أبدًا... إلا إذا كانت كذبة لطيفة."

غادرتُ المقهى بعد أن دفعتُ ثمن كوب "القهوة" بشريحة معدنية لامعة من كوكب بلوتوكس، والتي تُعدّ عملةً قيمةً في نظامنا الكوني. الغريب أن النادل لم يلاحظ الفرق، بل أخذها مني وكأنها قطعة نقدية عادية. يبدو أن البشر لا يُدققون كثيرًا في القطع اللامعة، أو ربما سحر التكنولوجيا الأرضية كان كفيلًا بإخفاء حقيقتها.

كنتُ أمشي بين الأشجار، أستعرض ملاحظاتي التي دوّنتها في عقلي، محاولًا ترتيب الفوضى التي أحدثها هذا الكوكب في بياناتي المُنظّمة. فجأةً، سمعتُ صوتًا رقيقًا ينبعث من حولي:

– "عمّو، ليش لابس غريب؟"

نظرتُ حولي، فوجدتُ مخلوقًا صغيرًا، بشرٌ صغير الحجم. لقد سمعتُ في أرشيفاتنا أن البشر يصغّرون أنفسهم في بداية حياتهم ثم يكبرون لاحقًا، وهذا بدا لي غريبًا ومُثيرًا للتساؤل.

انحنيتُ قليلًا لأُجيب الطفل، وقلتُ له بابتسامة مصطنعة لم أتقنها بعد:

– "هذا زيٌّ تقليدي من كوكب بعيد. أقصد... متجر بعيد."

نظر إليّ الطفل بفضولٍ أكبر، ثم قال ببراءة:

– "أنت غريب... بس شكلك طيّب. بتحب البوظة؟"

"ما هي 'البوظة'؟" تساءلتُ في داخلي.

سارعتُ بالبحث في القاموس الكوني المدمج بعقلي، فظهر لي الوصف: "مادة متجمدة تحتوي على سكر وحليب، وتُسبّب السعادة المؤقتة." بدا الأمر مثيرًا للاهتمام. هززتُ رأسي بحماسٍ لم أكن لأتوقعه من نفسي:

– "نعم، أريد بوظة فورًا!"

أخذني الطفل بيده الصغيرة إلى عربة متنقلة، وأشار إلى رجل يبيع هذه "البوظة". قال لي الطفل بابتسامة عريضة:

– "اختار نكهة!"

قرأتُ الأسماء المكتوبة على اللوحة: شوكولاتة، فانيليا، فراولة... لكن عيني وقعت على شيء اسمه "بستاشيو". بدا لونه الأخضر فاتحًا، وكأنه ينبض بطاقة خضراء غريبة.

قلتُ بجدية:

– "أريد بستاشيو. يبدو أنه يحتوي على طاقة خضراء مشعّة!"

أخذتُ أول ملعقة من البوظة البستاشيو، وأدخلتها إلى فمي. شعرتُ بتجربة جديدة كليًا؛ برودة مفاجئة، حلاوة غامرة، ومذاقٌ مُربكٌ لم أستطع تصنيفه. كانت تجربةٌ تُحفّز جميع حواسي بطريقة غير متوقعة.

قلتُ للطفل، وعيناي تتسعان دهشة:

– "هذه أفضل تجربة ذقتها على كوكب الأرض حتى الآن!"

ضحك الطفل بصوتٍ صغير، وقال:

– " بتحكي زي الأبطال في الكرتون."

نظرتُ إليه، وشعرتُ بشيء غريب يتكوّن في داخلي. هل هذه مشاعر؟ هل بدأتُ... أُعجب بالبشر؟

بعد لحظات من البوظة اللذيذة والضحكات البريئة التي شاركتها مع الطفل، ودّعتُه وعدتُ أتمشى في أحد الشوارع الجانبية. كان المكان يلفّه هدوء غريب... هدوء ثقيل ومُريب، يختلف تمامًا عن صخب الحياة الذي اعتدتُ عليه. كل خطوة كنت أخطوها كانت تُصدر صوتًا عاليًا بشكل غير مريح في هذا السكون.

فجأة، اخترق الصمت صوت غريب. لم يكن مجرد صوت، بل همسات متقطعة خشنة، تلتها ضحكات قاسية، أشبه بصوت احتكاك المعدن. اقتربتُ بحذر شديد

من الزاوية، كان قلبي الفضائي يدقّ بإيقاع لم أعهده من قبل. وعندما أطللتُ، تجمدتُ في مكاني.

رأيتُ مجموعة من ثلاثة شبان، تبدو أجسادهم قوية ووجوههم عابسة، يُحيطون برجل كبير في السن. كان يبدو ضعيفًا وهشًا، كغصن يابس على وشك الانكسار، وعيناه تحملان خليطًا من الارتباك والخوف.

كان يمسك بكيس خبز صغير، بدا وكأنه كل ما يملك.

صرخ أحدهم بصوت أشبه بالنباح: "أعطنا اللي في جيبك، يا عجوز!"

دفعه الآخر بعنف، وكأن جسد الرجل لا وزن له، وهو يقول بنبرةٍ ساخرة ومُهينة: "ولا تعمل فيها شريف، إحنا شايفينك كل يوم طالع من البنك!"

أما الثالث، فكان الأكثر وحشية، ضرب الرجل بكيسه الذي يحمله بقوة جعلته يسقط أرضًا، وتناثرت أرغفة الخبز حوله كأنها أحلام تحطمت.

الرجل لم يقاوم، لم يصرخ، فقط تمتم بصوتٍ خافت، مُرتجفٍ كأوراق الشجر في مهب الريح: "أنا ما عندي شيء... خلّوني أروح."

وقفتُ مكاني متجمدًا، وكأن الزمن قد توقف حولي. كان عقلي يعجز تمامًا عن استيعاب هذا المشهد. لماذا يضربون شخصًا أضعف؟ ما هو الهدف من هذا العنف الأعمى؟ في كوكب بلوتوكس، نحن لا نؤذي إلا من يحاول إيذاءنا... وحتى هذا نفعله بعد محاكمة طويلة وعادلة، وقرارات مدروسة!

لم أتحرك... هل أتدخل؟ هل أستعمل جهاز التجميد الذي أحمله؟ تلك التقنية القادرة على شلّ حركتهم بلمسة زر واحدة.

لكن لحظة، هذا ضد قوانين المراقبة الفضائية الصارمة! مهمتي هي المراقبة والتوثيق، لا التدخل في شؤون الكائنات الأرضية.

صوت داخلي، قوي وواضح، رنّ في رأسي: "راقب... لا تتدخل... لكن لا تنسَ أبدًا ما تراه."

في النهاية، ركل أحدهم الرجل المسكين ركلة أخيرة قبل أن يهربوا مسرعين، تتناهى ضحكاتهم القاسية في الأفق، تاركين خلفهم صدى مؤلمًا.

اندفعتُ نحو الرجل، وتجاهلتُ للحظة كل القوانين. ساعدته على الجلوس، وكان وجهه ينزف قليلاً من جبينه، لكنه ابتسم لي بابتسامة خافتة، ابتسامة تحمل في طياتها حزنًا عميقًا وقال بصوت هادئ ومُتعب: "لا تقلق... اعتدتُ على هذا."

اعتدت؟! اعتدت أن تُضرب وتُهان بهذه الطريقة؟! هذه الكلمة، "اعتدت"، كانت كشرارة جديدة تشتعل في أعماقي. شيء لم أشعر به من قبل، شعور غريب وثقيل. كان اسمه، على ما أظن، الحزن. لم يكن حزنًا على نفسي، بل حزنًا على هذا الكوكب، وعلى هؤلاء البشر.

ساعدتُ الرجل على النهوض، ومسحتُ الدم عن جبينه بمنديلٍ نظيف كان في جيبي. لم أسأله عن هوية أولئك الشبان، لأنني بدأتُ أفهم... في كوكب الأرض، لا تحتاج دائمًا إلى سبب واضح كي تتأذى.

قال لي بصوتٍ ضعيفٍ لكنه صادق، وعيناه تحملان خليطًا من الألم والامتنان:

– "أنت غريب الأطوار... بس فيك طيبة ما شفتها من سنين."

ترددتُ قليلًا، ثم قلتُ له بهمس ، كأنني أكشف سرًا عظيمًا:

– "أنا... لستُ من هنا."

ضحك بضعف، وبدت ابتسامته متعبة، وقال:

– "ولا أنا. من يوم ما ماتوا أولادي وأنا ما عدت أنتمي لأي مكان."

نظر في عينيّ مباشرة، وأضاف بنبرة تحمل رجاءً خفيًا:

– "تعال عندي الليلة، ما عندي حدا، و... بصراحة، محتاج حدا يحكي معي."

سكتُّ قليلًا، أستوعب دعوته غير المتوقعة. ثم هززتُ رأسي بالموافقة، شعورٌ غريب بالرغبة في البقاء تسلل إلى كياني.

كان بيته صغيرًا جدًا، لكنه مليءٌ بالدفء والذكريات. صورٌ قديمة تزين الجدران؛ امرأة تبتسم، أطفال صغار وجوههم مشرقة، وأثاثٌ خشبي يشبه ما رأيته في أرشيفات الحضارات المنقرضة على بلوتوكس. جلسنا على الأرض، على سجادة مهترئة لكنها مريحة.

قدّم لي كأسًا من مشروبٍ ساخن، تتصاعد منه أبخرة تحمل رائحة غريبة ومريحة في آنٍ واحد، ثم قال بصوتٍ هادئ:

"ما أعرف اسمك، بس هذا كل اللي أقدر أقدمه لك من ضيافة."

رفعتُ نظري إليه، وشعرتُ وكأن صوتي قد تغير، همستُ بنبرة لم أعتدها قط:

"اسمي زاي... والمشروب فعلاً أعجبني. شكرا لك أيها العم الطيب. في الحقيقة كنت أظن إنكم مجرد مخلوقات بلا قيمة، بس أنت... أنت علّمتني إن النبل يمكن أن يولد حتى من أعمق الفقر."

ضحك الرجل، وبدا أن ضحكته هذه المرة حقيقية وصافية، وقال:

– "كلامك جميل ورائع!"

ابتسمتُ لسعادته، شعورٌ لم أختبره من قبل.

في المساء جلستُ إلى جانبه في شرفة منزله المتواضع، ونحن نشرب المشروب الساخن. السماء بدأت وكأنها لوحة فنية مزينة بالنجوم، تتلألأ في عتمة الليل الباردة.

نظرتُ إليه وسألته بصوتٍ لم أعتد استخدامه من قبل، صوتٌ يحمل رغبة حقيقية في الفهم:

– "قل لي، ما أنتم؟ من أنتم أيها البشر؟ ما الذي يجعلكم... أنتم؟"

صمتَ قليلًا، ثم ابتسم ابتسامة خافتة وكأن السؤال أعاده إلى أيام شبابه المليئة بالحياة، وقال:

– "نحن... مخلوقات غريبة يا زاي. فينا النور وفينا الظلمة.

نحب، ونجرح، ونعتذر أحيانًا... وأحيانًا لا نفعل.

نغضب بسرعة، ونندم ببطء.

نخاف من الوحدة، لكننا نتسبب فيها لبعضنا.

نحلم دائمًا بما لا نملك، وننسى أن نرى ما نملكه."

أصغيتُ بانتباه شديد، فتابع حديثه العميق:

– "نحن... نبكي كثيرًا بصمت، ونضحك بصوتٍ عالٍ حتى لا يسمع أحد صراخنا الداخلي.

نرتكب الأخطاء، ونعيش على أمل أن يُسامحنا أحد.

قادرون على بناء حضارات... وهدم قلوبٍ بكلمة واحدة.

نُحب بصدق، لكننا نُعبر بطريقة فوضوية."

ثم نظر إليّ بعينين ناعستين تحملان حكمة السنين وقال:

– "لكن رغم كل شيء... نحن نحاول. وهذه أعظم صفة فينا.

نحن لا نعرف كيف نكون مثاليين، لكننا نحاول ألا نكون سيئين."

سكتُّ لحظة طويلة، أستوعب كل كلمة قالها، ثم قلتُ بتأمل:

– "أنتم... معقّدون."

ضحك بخفة، وبدت ضحكته كأنها خفقات قلب ضعيف، وقال:

– "أجل... ونحن لا نحب أن نعترف بذلك."

نظرتُ إليه طويلًا، ودوّنتُ داخلي جملة جديدة في تقريري:

"البشر كالمحيط... فيهم الجمال، وفيهم الغرق. لكنهم يملكون شيئًا لا يُفهم... اسمه المحاولة."

في تلك الليلة، لم أنم. بقيتُ أراقب هذا الكائن البشري الهش، وهو يغطّ في نومٍ هادئ، رغم كل ما كسره الزمن فيه. لقد بدا لي كمعجزة، كيف يمكن لروح أن تتحمل كل هذا الألم وتظل قادرة على إيجاد السلام في النوم؟

دوّنتُ آخر سطر في تقريري الفضائي، والذي لم يكن مجرد ملاحظة علمية، بل اعترافًا بجمالٍ مُربك:

"البشر... ليسوا عاديين. فيهم القسوة التي تُخيف، وفيهم الطيبة التي تُبكي."

مع بزوغ أول خيطٍ من الضوء، بدأ جسدي يتهيأ للعودة إلى هيئته الأصلية. كانت إشارات الطاقة تتجمّع في أجهزتي الداخلية، مما يعني أن السفينة أصبحت قريبة، على وشك القدوم لانتشالي من هذا الكوكب المليء بالتناقضات.

نظرتُ إلى الرجل النائم للحظة طويلة... كم هو هشّ هذا الكائن، وكم هو قوي في الوقت ذاته. قرب رأسه، وضعتُ شيئًا صغيرًا، أداة فضائية تُضيء كلما

شعر بالحزن. إنها لا تنفع في العلاج، لكنها تهمس في الأثير: "أنت لست وحدك."

تحرك في نومه، فاستيقظ ببطء. نظر إليّ، وبدت عيناه تحملان خليطًا من النعاس والفضول، وقال:

– "رايح؟"

هززتُ رأسي بابتسامة باهتة، محاولًا إخفاء الحزن الذي بدأ يغزو قلبي البلوتوكسي.

قال بحزنٍ ناعم، كأنما يودّع جزءًا من روحه:

– "كنت أتمنى تبقى شوي... صارلي زمان ما حدا سأل عني."

اقتربتُ منه، مددتُ يدي البشرية المرتبكة، وسألته بصوتٍ متردد، بالكاد سمعته أنا نفسي:

– "هل... تعتبرني صديقًا؟"

ضحك الرجل، وبدا أن ضحكته خلطت بين الدموع والبسمة، وهو يمسك يدي المرتبكة بقوة:

– "صديقي؟ إنت أغرب صديق مرّ عليّ، بس يمكن... يمكن كنت أكتر واحد حسّ فيّ من سنين."

ابتعدتُ ببطء، وقلتُ له قبل أن يختفي جسدي في موجة الضوء التي بدأت تتشكل حولي:

– "وداعًا يا إنسان... لم أعد أراك غريبًا."

ردّ بصوتٍ متهدج، يكاد يكون همسة:

– "وداعًا يا... مهما كنت. خذ بالك من نفسك، وين ما كنت."

ومع اختفاء جسدي في وميض الضوء الذي ابتلعني وعاد بي إلى مركبتي، لم أكن أعلم إن كان الرجل سيدرك يومًا أنه التقى بمخلوق فضائي. لكنني أعلم يقينًا... أنني التقيتُ بإنسانٍ حقيقي، إنسانٍ ترك أثره العميق في زاي، الكائن الفضائي الذي جاء ليتجسس، فعاد وقد تعلم معنى الإنسانية.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

في قلب الخراب: نبضٌ لا ينتهي

منذ أن بدأت الحرب، تغير كل شيء.

لم تعد السماء زرقاء، ولا الأشجار كما كانت، ولا الألوان ذاتها... كل شيء أصبح رماديًا، مطفأً وكأن العالم فقد بريقه.

أصبحت الصواريخ التي تملأ السماء بصوتها المروع، والهلع الذي يسرق النوم من أعيننا، جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية. أما الموت، فيمر بجانبنا كأنه رفيق دائم، يلتقط أرواحًا هنا وهناك، دون أن يُحسن الاختيار.

كل يوم هو حرب جديدة: حرب على الجوع الذي يعصر البطون، على البرد الذي يتغلغل في العظام، وعلى الفقر الذي يكبل الأيدي.

كنا نبحث عن لقمة عيش واحدة... واحدة فقط، لكن الأسواق التي كانت تعجّ بالأمل أصبحت فارغة، والأسعار ترتفع كالنيران، لا نكاد نلحق بها. وعندما نجد شيئًا نأكله، لا نتذوقه، لأنه مجرد أملٍ مؤجل في عالم غريب.

الحياة لا تُحتمل في هذا الجحيم، لكننا نعيش... لأننا مضطرون لذلك. نعيش تحت وقع الانفجارات، ونأمل أن تمر الأيام بلا فقدٍ آخر، وبلا ألم إضافي.

لكن في كل هذه الأنقاض، كان هناك ما يعطينا سببًا للاستمرار. كانت هناك نظرة ثابتة في أعيننا تقول: "لن نموت هكذا، نحن نملك شيئًا لا يمكن أن يُسلب منا. إنها هويتنا، أرضنا، وكرامتنا."

حتى وسط الدمار، وفي لحظات الفزع، كنا نتمسك ببعضنا البعض بقوة.

أمي، التي كانت تزرع الأمل في قلوبنا بكلماتها الدافئة كلما رأينا الصواريخ تمر في السماء.

أبي، الذي رغم الألم في جسده جراء الجوع، كان يهمس لنا بصوت خافت لكنه مليء بالإيمان: "لا تيأسوا، لعل الله يرحمنا في الغد القريب."

لكن في تلك الليلة، جاء الهجوم الأكبر. الصواريخ كانت تمطرنا كالمطر الغزير، والأرض تهتز تحت أقدامنا بعنف. وكلما مرت ثانية، كان الخوف يملأ صدورنا، ويضغط على قلوبنا بقسوة.

لكن وسط ذلك كله، كانت هناك لحظة قصيرة من الهدوء الغريب.

كنتُ في الزاوية الصغيرة من غرفتنا المهدمة، مع أخي الصغير، وبين يديه بعض الحبوب التي جمعها من مكانٍ بعيد. نظرتُ إليه... وكان يبدو وكأنه لا يهتم بما يحدث حولنا من دمار، فقط يبتسم لي، ابتسامة بريئة، وكأن الحياة لا تزال تحتفظ لنا بأشياء جميلة لا تُقدر بثمن.

قلت له بصوتٍ حاولتُ فيه أن أُخفي رجفة الخوف: "هل تعرف ما الذي يميزنا عنهم؟"

أجابني بابتسامة واثقة، وعيناه تلمعان: "نحن نعيش رغم أنفهم، نعيش لأجل كل لحظة، وكل ابتسامة، وكل أمل حتى وإن كان صغيرًا."

ذلك اليوم، حين انحسر الهجوم أخيرًا، لم أعد أشعر بالخوف كما كنت أفعل من قبل. ربما كان الألم سيبقى، لكننا سنظل هنا، مهما كان الثمن.

مرت الأيام، ولكننا لم نعد نحسب الوقت كما كنا نفعل في الماضي. الأنقاض التي تحيط بنا، والدماء التي تروي الأرض، أصبحت جزءًا من حياتنا اليومية، تمامًا كما أصبحنا نعد النجاة نفسها نعمة.

وفي يومٍ، بينما كنت أسير في أحد الشوارع المهدمة بحثًا عن مأوى آمن لي ولعائلتي، شعرتُ بشيء ثقيل يعتصر صدري. رأيتُ رجلًا مسنًا، كان يجلس بجانب حطام منزله، ويشاهد بأعينه الصامتة الدمار الذي حل بكل شيء جميل في حياته.

لم أستطع أن أقاوم، فذهبت إليه وسألته بلطف: "هل تحتاج إلى مساعدة، يا عم؟"

ابتسم لي ابتسامة حزينة، تخبئ وراءها آلاف القصص الموجعة، وقال بصوتٍ متهدج: "خرجتُ لأبحث عن طعام لأطفالي، وعدتُ وأنا سعيدٌ بأنني أحضرت

لهم ما يسكت جوعهم... لكنني لم أستطع أن أطعمهم. لقد رحلوا، وهم ينتظرون عودتي... لم أستطع حتى توديعهم."

ركعتُ بجانبه، وأخذتُ يده الراجفة بين يديّ. لم أستطع أن أقول له شيئًا في تلك اللحظة، فقد كان الألم أكبر من الكلمات وأعمق من العزاء.

"ما أبشع ألم الفقد، وأشد بشاعة أن ترى أحبابك يموتون وأنت لا تستطيع حمايتهم!"

وفي الأيام التي تلت نزوحنا، أصبحت أنظر إلى العالم بعينين جديدتين. لم يعد الألم يشلني كما كان يفعل، بل أصبحت أراه جزءًا من الحياة، جزءًا من الرحلة التي لا مفر منها. كل جرح يحمل معه درسًا، وكل لحظة بؤس تكشف عن طاقة كامنة فينا نحن البشر لا نعرفها إلا عندما نكون على حافة الفقد.

بدأت أساعد الآخرين في محاولاتهم اليومية للبقاء. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالمأوى أو الطعام، بل بالكلمات أيضًا. كنت أجد نفسي أكتب لهم رسائل صغيرة في أوراقٍ مهملة، أقول فيها: "في قلب العتمة، هناك دائمًا شعاع صغير. تذكروا أنه حتى في أصعب الأيام، الحياة تستحق أن تُعاش."

في إحدى المرات، جلست بجانب امرأة مسنّة كانت تبكي بحرقة على فقدان أبنائها في القصف. قلت لها بصوتٍ هادئ ومليء بالتعاطف: "أعلم أن لا شيء يمكن أن يعوّض فقدانهم، لكنكم كنتم وستمثلون لهم العالم كله. وقوة ذاك الحب، حتى لو كانت مجرد ذكريات، هي ما ستبقيهم أحياء في قلوبنا."

ابتسمت لي ببساطة، ثم قالت بصوت خافت لكنه مليء باليقين: "هم أحياء عند ربهم، وأحياء في قلوبنا... حتى وإن غابت أجسادهم."

ومع مرور الوقت، أدركتُ أن السر في البقاء ليس في القوة الجسدية أو المقاومة للظروف، بل في الثقة بالله، في الإيمان بأن هناك حكمة في كل ما يحدث، حتى في الأوقات التي تبدو فيها الحياة وكأنها تعاندنا.

كنتُ أجلس كل مساء في خيمتي الصغيرة، أتحدث مع نفسي وأقول: "اللهم، اجعلنا من الذين يثقون بك في أصعب الأوقات، ولا تجعلنا من الذين يتساقطون عندما تأتي الرياح العاتية."

وفي كل صلاة، كنتُ أشعر بشيء غريب ينبض في قلبي. شعورٌ بالسكينة، بالرغم من ضجيج العالم من حولي. أدركتُ أنه في كل مرحلة من حياتنا، يمر الإنسان بما قد يبدو صعبًا، لكن الله لا يُحملنا أكثر من طاقتنا.

في وسط كل هذه الظروف، وجدت نفسي أُعطي للأجيال الصاعدة ما كنت أفتقده في صغري. أصبح الأطفال الذين يحيطون بي، مثل إخوتي الصغار، فأنا لم أعد أرى فيهم مجرد أمل، بل مسؤولية عظيمة.

كنت أروي لهم قصصًا عن الصبر، عن الأمل الذي لا يموت، عن النضال الذي لا ينتهي، وأقول لهم: "أنتم الجيل الذي سيغير هذا العالم، لأنكم لا تعرفون حدود حلمكم بعد." كنتُ أرى في أعينهم ما لم أره في وجوه الكبار: رغبة جامحة في الحياة، وشغفًا متأججًا في قلب كل طفل، حتى في أصعب اللحظات.

في إحدى المرات، جلست مع فتى صغير، كانت نظراته مليئة بالقلق من المستقبل، فسألني بتردد: "هل ستنتهي الحرب؟ هل سنعود يومًا إلى ما كنا عليه؟"

ابتسمتُ له ابتسامة صادقة، وأجبته بصوتٍ يملؤه اليقين: "لا يمكننا أن نعرف ما سيحدث غدًا، لكننا نعلم أنه إذا أصررنا على الأمل، سنبني مستقبلًا أفضل. نحن لا نعيش فقط لأجل أنفسنا، بل لأجل من سيأتي بعدنا. إذا كانت خطواتنا ثابتة، سنمنحهم عالمًا أكثر سلامًا."

سكت لحظة، ثم قال بعزم: "أنا سأصبح مثلكم، سأساعد كل من يحتاج."

أدركتُ في تلك اللحظة أن الأمل لا يكمن فقط في البقاء، بل في نقل ذلك الأمل للآخرين، خاصةً لأولئك الذين لا يزالون يرون العالم بعيني البراءة.

ومع مرور الأيام، رغم بشاعتها، كنتُ أرى تغيّرًا في الوجوه التي حولي، في الأطفال الذين كانوا يختبئون خلف الحطام، وفي الشباب الذين بدأوا يعيدون بناء أحلامهم التي خُيّل إليهم في البداية أنها تحطمت إلى الأبد.

رغم كل ما مررنا به، كانت هناك بداية جديدة تنبثق من بين الأنقاض. وكل خطوة للأمام كانت تذكرني بأن الحياة لا تكتمل إلا بالمثابرة، وبأن الأمل هو ما يجعلنا نستمر في وجه الألم.

ربما لا نملك الكثير، لكننا نملك إيماننا، إيماننا بالله، وإيماننا بأننا لن نكون وحدنا في هذا الطريق. في تلك اللحظة، عرفتُ أن الأمل لا يأتي من انتظار الغد، بل من العمل في الحاضر، ومن زرع الثقة في الأجيال القادمة.

لن أتركهم أبدًا، وسنظل معًا، حتى نرى المستقبل الذي نأمل فيه.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

"أرض الأحلام... حنين لا يزول"

كانت السماء تمطر بهدوء، ونافذتي الصغيرة في غربتي تنقل لي صوت المطر كأنه لحن عتيق من الماضي.

جلست على الكرسي الخشبي العتيق بجوار النافذة، ويدي تحتضن كوب شاي دافئ، بينما قلبي يهمس باسم لم يغب عن خاطري يومًا: قريتي... يا أرض الأحلام التي تسكن روحي.

هناك... حيث كان كل شيء بسيطًا ونقيًا كقطرات الندى على أوراق الشجر.

حيث كانت الأشجار تهتز فرحًا في مهب الريح، وكأنها تطلق ضحكات مكتومة، والمدرسة الصغيرة تقف شامخة على التل، تستقبل خطواتنا المتعثرة بابتسامة صباحية صامتة رغم الغبار المتراكم والعناء الظاهر فيها .

أتذكر كيف كنت أركض في الطرقات الطينية، حافي القدمين غالبًا، وأضحك ملء روحي، وكأن الحزن كلمة غريبة لم تطرق باب دنيانا الصغيرة...

أتذكر جيدًا، بعد كل مطر، كيف كانت الأرض تبتلّ وتتحول إلى ملعب سحري لنا نحن الصغار.

كنا نقفز فوق البرك المتلألئة، نركض في الطين اللزج، نرشّ بعضنا بماء المطر المتجمع في الحفر، نخوض مغامرة طينية لا يعرف لذتها الكبار.

كنت أعود للبيت وثيابي مبللة وموحلة تلتصق بجسدي الصغير، وجسدي يرتجف قليلًا من برد الشتاء، لكن قلبي كان دافئًا يفيض بالفرح الطفولي.

وفي الليل، كانت أمي توبخني بصوت حنون:

"ألا تملّ يا بني من العودة كل مرة بهذا الشكل؟"

لكني كنت أبتسم في خجل، وأنا أعلم أنني عشت لحظة من الحرية الجامحة... لحظة لا تقدر بثمن.

كانت قريتنا صغيرة، لكنها تحتضننا بحنان أم رؤوم، كأنها صدر واسع لا يضيق بنا أبدًا.

كل بيت فيها يعرف الآخر باسمه وسماته، وكل وجه مألوف ينطق بالود، وكل صباح يبدأ بنداء الأمهات الدافئ وصرخات الأطفال المتعجلين وهم يركضون متأخرين نحو المدرسة البعيدة.

مدرستنا لم تكن فسيحة، لكنها كانت تتسع لأحلامنا الصغيرة وطموحاتنا البريئة.

أحببت طاولتي الخشبية القديمة، تلك التي حفرت عليها اسمي الصغير ذات يوم بسرٍّ كبير، كأنني أُثبت للعالم أنني كنت هنا... أنني انتميت لهذا المكان بجذور عميقة.

كنا نُضحك المعلمين بأسئلتنا الغريبة أحيانًا ونغضبهم بشغبنا الطفولي أحيانًا أخرى ،ونتلقى ضربات خفيفة على أيدينا الصغيرة، نسرق الحلوى خلسة من حقائب بعضنا ونقتسمها بفرح بعد لحظات من التوتر.

وكان وقت الفسحة هو أعظم اختراع عرفته طفولتنا... فيه ننطلق كالعصافير، نلعب، نصرخ بأعلى أصواتنا، ننسى كل شيء إلا متعة اللحظة والفرح الغامر.

وكان لي أصدقاء... كثيرون، أكثر من عدد نجوم السماء في ليلة صافية.

لكل واحد منهم ضحكة مميزة ترن في أذني حتى الآن، وحكاية فريدة لا تشبه حكايات الآخرين.

كنا كخيوط الشمس الذهبية وقت الشروق، نلتقي في نقطة واحدة عند بوابة المدرسة ثم ننطلق كلٌ في طريقه، لكن قلوبنا كانت دومًا تعود لبعضها في نهاية اليوم.

صديقي سامي، كان يسبقنا في الجري دومًا، وكأن الريح الصباحية تحمله بخفة.

وسالم، صاحب النكتة الحاضرة، لا تمر دقيقة دون أن يجعلنا ننفجر من الضحك حتى تدمع أعيننا.

أما راشد، فكان يعشق التحديات، يدخل في كل مغامرة صغيرة كأنها معركة حقيقية، حتى لو كانت مجرد قفز فوق مجرى ماء طحل.

كنا نلعب حتى تتوارى الشمس خلف الأفق البعيد، ونقسم كل يوم أنه سيكون "الأفضل"، ولا نفي بوعدنا أبدًا، لأن اليوم التالي كان دومًا يحمل في طياته جمالًا جديدًا.

كنا نودّع بعضنا بعد انتهاء الدوام المدرسي وكأننا لن نلتقي أبدًا،

كل واحد فينا يمشي في طريقه المترب، والغبار يعلو خفيفًا تحت خطواتنا الصغيرة.

كنا نلوّح بأيدينا الصغيرة ونحن نضحك بقلوب صافية، ونتواعد سرًا على اللعب بعد العصر... إن سمحت لنا أمهاتنا الحنونات!

أعود إلى البيت، أبدّل ثيابي بسرعة البرق، وأتناول لقمة بسيطة من الطعام الشهي،

ثم أمسك بالحبل المتين، وأقود حماري الصغير الودود نحو البئر العتيقة.

كنا نذهب سويًا، أنا وهو، أتحدث إليه أحيانًا بصوت خفيض – نعم، كنت أتكلم معه كصديق وفي –

وأحيانًا أكتفي بصوت خطواته الهادئة وهي تطأ تراب القرية الناعم.

أملأ الدلو بالماء البارد من البئر العميقة وأراقب الشمس الذهبية تتدلّى ببطء خلف التلال البعيدة،

كان للمساء في قريتنا طعم خاص...

صوت الدجاج العائد إلى الأقنان الخشبية، ورائحة الخبز الطازج تخرج دافئة من نوافذ البيوت المتجاورة، والنسيم الخفيف يصير ألطف وأكثر حنانًا.

ثم أعود إلى البيت، أضع الماء في مكانه المعتاد، وأجلس بجوار أمي الغالية وهي تطبخ على الموقد الصغير،

أحكي لها بحماس ما حدث في المدرسة، ومَن ضحك بصوت عالٍ، ومَن بكَى سرًا، ومَن حصل على علامة كاملة أثارت حسدنا الطفولي،

فتبتسم أمي، وتنظر إليّ بحب عميق، كأنها تسمع قصة جديدة لم تُروَ من قبل.

وفي المساء الهادئ، كانت العائلة كلها تجتمع حول صحن واحد كبير.

أبي يحكي قصصه القديمة عن أيام شبابه وكفاحه، وأمي تقطّع الخبز الطازج بيديها المباركتين وتضعه أمامنا بمحبة لا تضاهى،

وأنا وأخي الصغير نتنافس بصمت من يأكل أكثر، بينما أختي الكبرى تضحك بهدوء من تصرفاتنا الصبيانية.

بعد العشاء البسيط، نجلس قليلًا في الفناء الواسع، تحكي لنا جدتي قصصًا ساحرة عن الزمن الماضي البعيد، وكيف كانت الحياة بسيطة وقوية.

ننظر إلى النجوم المتلألئة في السماء السوداء، ونعدّها بفضول كما لو كانت كنوزًا ثمينة نبحث عنها.

الهواء في الليل باردًا قليلًا، لكنه جميل ومنعش،

ورائحة الحطب المشتعل بهدوء من بيت الجيران تعانق سكون الليل.

ثم أنام... على فراش بسيط،

لكن قلبي الصغير ممتلئ بكل كنوز الحياة.

الأصدقاء الأوفياء، قطرات المطر النقية، المدرسة الدافئة، الحمار الودود، البئر العتيقة، ووجه أمي الملائكي وهي تقول لي بصوت حنون:

"نم يا صغيري، غدًا يوم جديد يحمل معه فرحًا آخر."

تمر السنوات سريعًا كجريان النهر، وكبرنا نحن أطفال القرية، وأصبحنا شبابًا في سن العمل والمثابرة...

لم أعد ذلك الطفل الذي يعشق اللعب بعد المطر ويتلقى التوبيخ الخفيف من والدته الحنونة،

بل صرت أستيقظ باكرًا قبل شروق الشمس لأرافق والدي إلى الحقل الأخضر.

كانت الشمس لم تُشرق بعد،

ونحن نمشي جنبًا إلى جنب بين صفوف أشجار البن العالية، نحمل أدوات الزرع الثقيلة،

والندى البارد يبلل أطراف ثيابنا الخشنة.

كنت أراقب والدي وهو يغرس البذور بعناية فائقة،

يداه الخبيرتان تعرفان الأرض كأنها صديقته القديمة التي يفهمها دون كلام،

وكل حركة منه كانت تقول بصمت:

"احترم الأرض يا بني، فهي تعطي بسخاء لمن يُخلص لها العمل."

علّمني كيف أحرث الأرض العنيدة، كيف أروي الشتلات الصغيرة،

كيف أميز بين نبتة مريضة وأخرى قوية وسليمة،

وكيف أتحدث مع الشجر بلغة القلب الصامتة.

في تلك اللحظات الصباحية الهادئة، لم أكن مجرد ابن...

كنت امتدادًا لروحه، كأن الحياة نفسها تهمس لنا نحن الاثنين:

"هنا الجذور العميقة، وهنا تنبت القلوب الطيبة."

كان لصيف قريتنا سحر خاص لا يُنسى،

حرّه ليس كحر المدن الخانق، بل دافئ يداعب بشرتك بلطف،

والنسيم العليل الذي يهب من بين التلال الخضراء يشبه يدًا حنونة تربت على كتفك بهدوء.

في الصيف الذهبي، تتزين الأرض بسنابل القمح الذهبية،

وتفوح رائحة التراب الدافئ بعد سقي الحقول العطشى،

ونسمع زقزقة الطيور المرحة كأنها تغني ترانيم الحياة السعيدة.

كنا، أنا وأصدقائي القدامى، نخطط بشوق دائم لرحلات صغيرة نحو التلال القريبة الشاهقة،

نحمل معنا بعض الخبز الأسمر، تمرًا حلو المذاق، وربما زجاجة عصير نادرة كنا نحافظ عليها ككنز ثمين.

نمشي حفاة أحيانًا على العشب الندي، نضحك من حرارة الحجارة الصغيرة،

ونتسابق بحماس لنصل أولًا إلى ظل شجرة عملاقة معمرة تعرفنا جميعًا منذ طفولتنا.

كنا نجلس تحت أغصانها الوارفة، نروي القصص الخيالية، ونرسم بالعصا على التراب الناعم أحلامنا الصغيرة البريئة.

هناك، في أعلى التل المطل على القرية، كانت قريتنا تبدو كأنها لوحة فنية مرسومة بريشة فنان ماهر،

البيوت البيضاء المتراصة، الأشجار الخضراء المنتشرة، والدخان الخفيف الذي يتصاعد من تنور الخبز الطيني...

كنا نلوّح بأيدينا ونصرخ بأعلى أصواتنا من بعيد، رغم أننا نعلم يقينًا أنه لا أحد يرانا أو يسمع أصواتنا المبحوحة.

في طريق العودة الطويل، نحمل معنا الحجارة الملساء التي جمعناها والعصي الملتوية التي وجدناها،

كأننا جلبنا معنا شيئًا من سحر الطبيعة الخلابة،

ونعود قبل غروب الشمس الذهبية، وجيوبنا الصغيرة مملوءة بذكريات لا تُنسى.

ومرت الأيام كلمح البصر، وكبرت أحلامي كما كبرت غربتي القاسية.

صرت أعيش في مدينة أخرى صاخبة، بين وجوه غريبة وأصوات لا تحمل دفء قريتي،

لكن رغم كل ذلك الصخب والضجيج، كان قلبي لا يزال أسيرًا لتلال قريتي الهادئة،

وأمضي يومي في العمل الشاق، بينما عقلي الشارد يعود دائمًا إلى حيث كانت الأرض الطيبة تحت قدمي الصغيرتين.

في البداية، كنت أستيقظ في غرفتي الضيقة الباردة،

أشعر بشيء ناقص يؤرق روحي، شيء لا أستطيع وصفه بدقة،

ثم أكتشف بعد لحظات من التأمل أنه صوت الطيور المغردة في الصباح الباكر، ورائحة الأرض الرطبة المنعشة بعد هطول المطر الغزير.

كنت أمشي في شوارع المدينة المزدحمة،

وأتخيل أصدقائي وهم يتسابقون بحماس في التلال الخضراء،

صوت ضحكاتهم الصافية يملأ الأفق البعيد،

والهواء النقي المنعش يملأ صدورهم الصغيرة،

لكن هنا، كانت الروائح غريبة ومصطنعة، والصمت في الليل ثقيل وموحش.

في المساء الكئيب، كنت أعود إلى شقتي الصغيرة،

أجلس وحدي في صمت قاتل، وذكرياتي الجميلة تعود إليّ مثل موجات البحر الهائجة،

تلتهمني بشوق وحنين وتعيدني قسرًا إلى تلك الأيام البسيطة السعيدة.

كيف كان لدينا كل شيء حقيقي وجميل، ولم نكن نعرف في صغرنا قيمة ما نملك...

أصدقاء أوفياء، وحرية طفولية لا تقدر بثمن، وأرض صغيرة نحترمها ونحبها،

وأيام تمضي ببطء، لكنها كانت أغلى وأجمل الأيام.

ومرّت الأيام، والسنوات أصبحت كحلم بعيد تلاشى في غياهب الذاكرة.

وفي كل صباح، عندما أستيقظ وحيدًا في غربتي الباردة،

أجد أن جزءًا مني لا يزال هناك، في تلك الأرض الصغيرة الدافئة.

لكنني أدركت بحزن خفي، أن هناك جنانًا لا تُزار مرتين،

أماكن تبقى عالقة في الذاكرة كصور باهتة، خشية أن يمحو واقع الزمن ألوانها النقية.

وبينما أنا هنا، وسط المدينة الكبيرة الصاخبة،

إلا أن جزءًا أصيلًا مني ظل راسخًا هناك... في "أرض الأحلام"،

حيث الطفولة البريئة، والأصدقاء الأوفياء، والحقول الخضراء، والمطر الغزير.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

شظايا الدم

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل حين وصل هشام إلى مسرح الجريمة. خيّم صمت ثقيل على المكان، كأن الليل نفسه يكتم أنفاسه ليخفي ما جرى هنا. تقع الشقة في الطابق الخامس من مبنى عتيق، يبدو وكأنه يحمل في جدرانه حكايات مظلمة نسجتها السنين.

دخل هشام بهدوء حذر، يتلمس طريقه بخطوات بطيئة . لم يصل فريق التحقيق بعد؛ كان هو أول الواصلين عقب البلاغ.

ما إن ولج إلى الداخل، حتى استشعر جوًا مشحونًا بشيء خفي، كأن هناك عيونًا تراقبه. ما إن فتح باب الشقة حتى خنقته رائحة الدماء ،أما في غرفة النوم ، فقد تناثرت بقع الدماء على جزء كبير منها ، تنساب عشوائيًا بين قطع الأثاث. كانت الرائحة النفاذة تفوح في الأرجاء، لكن لم يكن هناك ما يقطع الشك باليقين ويؤكد وقوع جريمة قتل. لا جثة، لا سلاح، ولا حتى آثار عراك.

"ماذا حدث هنا بحق الجحيم؟" تمتم هشام وهو ينحني قُرب البقعة الأكثر تركيزًا للدماء.

كانت الدماء في تلك المنطقة أشد كثافة، كأن شخصًا هوى أرضًا هناك... لكن أين الجثة؟ أين ذهب من كان هنا؟

أضاء هاتفه المحمول وشرع يلتقط صورًا لكل شيء. تفحص الجدران، النافذة المفتوحة، شظايا الزجاج المتناثرة قرب الركن... لكن ما استرعى انتباهه أكثر من أي شيء آخر هو ذلك الشعور الغامر بأن هذا المكان ابتلع أكثر من روح.

كان وقع خطواته الصوت الوحيد الذي يتردد في الغرفة، يقرع في أذنيه كصدى في فراغ موحش. أحس بشيء غريب يلفّه، كأن عيونًا خفية تراقبه من كل حدب وصوب. لكن لا أحد هنا... أليس كذلك؟

لحظة صمت وتوجس، ثم لمعت في ذهنه صورة الشاهد الذي أبلغ عن الجريمة. لكن، لماذا يلحّ عليه هذا الشعور العميق بأن لا أحد رأى شيئًا؟

بعد وقت جلس هشام على المقعد الخشبي المهتز في غرفة التحقيق العتيقة.

الضوء الخافت المنبعث من المصباح المتدلي في الأعلى كان يتأرجح مع كل نسمة هواء، يبعثر ظلالًا شبحية على الجدران.

فتح دفتر ملاحظاته ودوّن:

"الشاهد زعم أنه رأى كل شيء. هذا سيكون خيط البداية."

في تلك اللحظة، دلف الرجل إلى الغرفة.

كان هادئًا، شاحب الوجه، غائر العينين، وابتسامة واهنة ترتسم على شفتيه. جلس قبالة هشام دون دعوة.

كان لباسه بسيطًا، يميل إلى البياض... أقرب إلى زي نزلاء المصحات.

"هل أنت من أبلغ عن الجريمة؟"

سأله هشام وهو يحدّق فيه بثبات.

لم يجب الرجل على الفور. بل راح يتفحص هشام بفضول مقلق، ثم همس بصوت خفيض:

"رأيتها ملقاة على الأرض، غارقة في دمائها. كان الدم يلطخ كل شيء... لكنه لم يكن دمها وحدها."

اعتراه الارتباك. "من؟ من التي كانت غارقة في دمائها؟"

ابتسم الرجل ابتسامة جانبية وقال:

"هي التي كنت تحاول إنقاذها... لكنك وصلت متأخرًا. كما تفعل دائمًا."

شهق هشام، وتصلبت أصابعه حول القلم.

"هل تعرفني؟"

أومأ الرجل ببطء، كأن رأسه ينوء بحمل ثقيل.

"أعرفك أكثر مما تعرف نفسك، أيها المحقق هشام. أعرف لماذا جئت. لتبحث عن شيء لم يمت بعد... لأنه ما زال حيًا في داخلك."

ساد صمت مطبق بينهما.

فقط العيون المتشابكة، وذكرى لم تُروَ بعد.

تاقت نفس هشام للنهوض، لإنهاء هذا التحقيق الغريب. لكنه شعر وكأن كرسيه يمسكه بقوة، كأن الأرض ابتلعت قدميه.

"هل قتلتها؟" سأل هشام بصوت متقطع.

قهقه الرجل.

ضحكة قصيرة، مبهمة، ثم تمتم:

"لا أحد يقتل الحقيقة... لكنها تختبئ عندما يرتعد منها صاحبها."

نهض فجأة وانصرف، دون أن يلتفت إلى الوراء.

ترك هشام في صمت مشوش، قلبه يخفق بعنف، وعيناه تراقبان الباب المغلق، تنتظران أن يُفتح من جديد...

لكن لم يأتِ أحد.

خرج من الغرفة التي التقى فيها بـ "الشاهد"، لكن الممر بدا مختلفًا. أطول. أضيق. وكأن الجدران تزحف نحوه، تضيق عليه الخناق ببطء.

استنشق بعمق، وحاول التركيز.

"غرفة التحقيق... يجب أن أعود إلى غرفة التحقيق."

همس لنفسه، لكنه لم يكن واثقًا: هل كان هناك تحقيق؟ هل كان هناك شيء أصلًا؟

أصوات خافتة بدأت تتسلل من الجدران.

ضحكة طفلة. نغمة موسيقية مألوفة لديه.

ثم صوت امرأة تناديه:

"هشام... تأخرت."

توقف.

ارتجف جسده، وخفق قلبه بسرعة جنونية.

استدار ببطء، فرأى بابً مفتوحًا خلفه، والضوء يتدفق منه بغزارة.

دخل دون وعي، فوجد نفسه في غرفة لم يرها منذ سنوات: غرفة طفلته.

كل شيء كما كان. الدمية على السرير، الرسم الطفولي على الجدار، الستارة الوردية الصغيرة تتحرك بهدوء.

لكن لا أحد فيها.

ثم...

نقطة دم تسقط على الأرض.

ثم أخرى.

ثم دوى صوت طلقة.

ثم علا صراخ مكتوم.

رفع رأسه فجأة، ووجد نفسه في مكان آخر.

مرآة ضخمة أمامه، لكنه لا يرى انعكاس محقق.

يرى وجهًا شاحبًا، بثياب رثة كأنها لمرضى. عينان ذابلتان. ندبة قديمة تعلو حاجبه.

همس:

"من هذا؟"

لكن الصوت الذي أجابه كان صوته هو نفسه:

"أنا أنت... حين تتوقف عن الكذب على نفسك."

ثم تحطمت المرآة فجأة، وتناثرت شظاياها حوله، كل واحدة تعكس جزءًا مختلفًا من ذاكرته الممزقة.

وجه زوجته ملطخ بالدماء، طفلة تبكي بذعر، مسدس أسود، عمارة تلتهمها النيران، و... هو، جاثيًا في زاوية غرفة بيضاء، يصرخ بلا صوت.

غطّى أذنيه بكلتا يديه، وأغلق عينيه بإحكام، وحاول أن يتلاشى.

لكن الصوت عاد يتردد في رأسه بوضوح قاتل:

"أنت السبب في موتهم، أنت من قتل زوجتك وطفلتك."

استفاق هشام فجأة. كان يتنفس بسرعة، كمن استيقظ من كابوس جاثم على صدره.

لكن هذه المرة كان الواقع أشد قتامة. هو لا يزال في المصحة. لا يزال حبيس الغرفة البيضاء، لكن الذاكرة قادت عقله إلى مكان آخر.

إلى المكان الذي لا مفر منه.

رأى نفسه هناك، داخل شقته المدمرة.

دماء تلطخ كل شيء، وآثار خراب تبعث على التقزز. واصل جر قدميه المثقلتين إلى غرفة نومه، لكنه تمنى لو كان ما يراه مجرد كابوس يستفيق منه في أي لحظة. زوجته وطفلته مذبوحتان بوحشية، ودماؤهما تغطي السرير.

كانت لحظة ثابتة في الزمن، لحظة أبدية استوطن فيها الموت قلبه.

"نرمين! ليلى!" صرخ هشام في أعماق عقله، لكن الصوت تخثر في حلقه.

في تلك اللحظة، تجسد المشهد أمامه، يتكرر كأنه يراه للمرة الألف.

رأى نفسه في مسرح الجريمة، في قلب الحريق الذي اجتاح روحه.

زوجته ملقاة بلا حراك على السرير، عيناها شاخصتان نحو السقف، وليلى جاثمة بجوارها، وجهها الملائكي شاحبًا، لكن طعنات متفرقة مزقت صدرها وبطنها بوحشية.

الدماء لوثت المكان، حتى زجاج النافذة تلطخ بها.

"لم أستطع إنقاذهما. أنا السبب... أنا من قتلتهما." كان يردد تلك الكلمات في داخله، حتى غرق عقله في بحر من اللوم الذاتي.

لكن الصوت الذي سمعه الآن كان غريبًا، لم يألفه من قبل.

"أنت لا تستطيع تغيير الماضي، هشام. كل ما تفعله هو الهروب منه."

نظر حوله بضياع، فوجد نفسه في غرفة صغيرة خانقة، لا نوافذ فيها. جدران بيضاء باهتة، وأثاث قديم متهالك.

فجأة، شعر بثقل جاثم على صدره.

رآها، زوجته نرمين، تقف أمامه، ترتسم على وجهها ابتسامتها المعهودة، لكن عينيها تفيضان بالدموع.

ثم قالت بصوت هادئ يخترق الروح:

"لماذا لا تستطيع أن تحيا؟ هل سيعيدك التحقيق إلى هنا؟"

تراجع هشام إلى الوراء بخطوات متثاقلة، قلبه يخفق بعنف، وعيناه تنغلقان قليلًا من شدة الألم.

"أنا... أنا لا أستطيع التوقف عن البحث. أحتاج أن أعرف لماذا قتلكما بهذه الوحشية."

ابتسمت نرمين بحزن وقالت بهدوء:

"لا جدوى من البحث... لا ترهق نفسك بالتفكير واللوم."

واختفت، تمامًا كما اختفت ليلى، كما اختفت الحياة من عالمه.

جلس هشام على الأرض الباردة، وضغط بكلتا يديه على رأسه، كأنه يحاول أن يكتم الصرخات التي لا تزال تتردد في أذنيه.

"لا أستطيع الهروب من هذا الألم."

وعاد الصوت يتردد في أعماقه:

"لكنك لا تهرب، أنت فقط تعيش فيه."

أضاءت الأضواء الخافتة في غرفة المصحة، حيث كان هشام جاثيًا على حافة السرير. عينيه متسعتان بفزع، ويداه ترتجفان بعنف. كانت صرخاته المكبوتة تتردد في أرجاء المكان، ولم يكن هناك ما يمكن أن يهدئه. كان صوته يزداد جنونًا مع كل لحظة، وداخل قلبه كانت تدور معركة ضروس بين الحقيقة المرة والإنكار المستميت.

دخل أخوه، طارق، إلى الغرفة. كان يرتدي ملابس بسيطة، لكنه بدا مرهقًا وشاحبًا للغاية. اقترب بخطوات حذرة، وهو يراقب هشام الذي كان يغطي وجهه بيديه، كما لو كان يحاول أن يحجب عن نفسه الحقيقة التي يرفضها عقله.

"هشام، أنا هنا معك،" قال طارق بصوت هادئ، لكنه كان مشبعًا بالقلق العميق.

لكن هشام لم يرفع رأسه. كان يصرخ بصوت مبحوح، مشوهًا بالألم:

"لقد قتلوها! قتلوا زوجتي، قتلوا طفلتي البريئة!"

تشنج جسده بعنف، وكأن كل كلمة يلفظها تقطع قلبه شظايا.

"سوف يقتلونني! سيقتلون أمي! سيقتلوننا جميعًا!" كانت عباراته خليطًا من الهذيان والجنون، لا يمكن تفسيرها إلا على أنها صرخة يائسة تنبع من أعماق عقله المحطم.

طارق اقترب منه ببطء وحذر، ووضع يده برفق على كتفه المرتجف.

"هشام، هذا ليس خطأك. أنت لم تقتلهم. لا أحد يستطيع أن يتحمل ما حدث... أنت لم تكن المسؤول عما جرى."

حاول طارق أن يهدئه بكلمات مطمئنة، لكن هشام كان غارقًا في عالمه الخاص، لا يستمع إلى شيء. كانت عيناه متسعتين بشكل مرعب، والدموع تنهمر بغزارة على وجهه الشاحب.

"لا، لا!" صرخ هشام وهو يرفع رأسه فجأة، وكان وجهه مشوهًا بالتوتر والإنكار.

"لقد قتلوا ليلى... قتلوا طفلتي..قتلوا صغيرتي."

ثم أطلق صرخة مدوية اخترقت سكون المكان، وكأن الأرض تحت قدميه تتصدع:

"أريد أن أموت! أريد أن أكون معهما! أريد أن أراهما مرة أخرى!"

كان يضرب صدره بقبضتيه بعنف، في نوبة هستيرية مرعبة، وتشنج جسده كما لو أن الألم الداخلي أصبح لا يُطاق.

طارق تراجع خطوة إلى الوراء، يحاول استيعاب الصدمة التي تجسدت في عيني أخيه.

ثم نادى الطبيب بصوت مضطرب، الذي دخل الغرفة على الفور. كانت ملامح الطبيب هادئة ظاهرًا، لكن في عينيه كان يختبئ قلق عميق.

أعطى الطبيب حقنة مهدئة لهشام، وببطء بدأ جسده يسترخي، لكن عينيه ظلتا مفتوحتين، تتنقلان بشرود بين صور الماضي المؤلم التي لا يستطيع الهروب منها.

طارق جلس على الكرسي المقابل للطبيب، وعلامات الحزن والقلق بادية على وجهه.

"هل سيستمر هذا؟" سأل بصوت منخفض، لكنه كان يحمل في طياته ثقل الهم الذي يرزح تحته بسبب حالة أخيه.

أخذ الطبيب نفسًا عميقًا قبل أن يجيب بجدية:

"إنه في حالة انهيار نفسي حاد، من الواضح أنه يعيش في هذيان مستمر حول الحادث المروع. لكن المشكلة الأكبر تكمن في أن هشام يرفض الاعتراف بالحقيقة، إنه يعتقد أن موت زوجته وطفلته هو نتيجة لخطأ ارتكبه هو. إنه في حالة إنكار تام. هذا لا يتعلق فقط بالجريمة نفسها، بل بصراع داخلي مستمر يمزق روحه."

ثم نظر إلى طارق مباشرة وقال بنبرة جادة:

"من المحتمل جدًا أنه يعاني من اضطراب ما بعد الصدمة، وكل هذه الأعراض قد تكون نتيجة للضغط النفسي الهائل الذي مر به يوم الحادث. يجب أن يحصل على دعم نفسي طويل الأمد، وربما يحتاج إلى علاج نفسي مكثف لمساعدته على تجاوز هذه المحنة."

شعر طارق بثقل الكلمات التي سمعها. كان من الواضح أن هشام قد انزلق إلى دائرة مغلقة من الألم الداخلي، يبدو من المستحيل الخروج منها بمفرده. لكنه كان مصممًا على الوقوف بجانبه ومساعدته على التعافي، مهما طال الطريق.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

الهروب إلى الذات

كانت الأمطار قد بدأت تتساقط بغزارة، قطراتها تلهب وجهي البارد، لكنني لم أكن أعي ذلك. كان تركيزي كله على الهروب. الهروب من شيء ما... ربما من حياتي القديمة، أو من نفسي التي لم أعد أحتملها، أو من شيء عميق ينهش روحي. ابتلعتني الغابة بأشجارها الكثيفة، وكل خطوة كنت أخطوها كانت تشعرني كأنني أبتعد أكثر عن عالم آخر؛ عالم تملؤه الزيف والحقد والكراهية.

لم أعد أستطع تحمل مشهد عينيها... كانت غارقة في الأسئلة التي لم أكن أملك لها إجابة. شعرت أنني بحاجة ماسة للفرار، لأنني لم أكن أملك القوة لمواجهتها، أو لأواجه نفسي المنهكة.

في تلك اللحظة، لم يكن لدي مكان أذهب إليه. فقط هذا الطريق الضبابي الذي يشق طريقه وسط الغابة الصامتة، والذي ابتلعني بعيدًا عن كل شيء، بعيدًا عن الجميع، بل وحتى عن نفسي. كنت أركض، أركض بلا توقف. لا أعرف إلى أين يقودني هذا الجنون، ولكنني كنت أشعر أنني قد أجد في هذا اللا مكان، مكانًا يختفي فيه قلبي المثقل بالندم. كانت الأشجار تغلق الطريق أمامي كجدران عملاقة، والرياح تعوي في أذني كأرواح ضائعة، لكنني لم أكن أسمع شيئًا سوى أصوات قدميّ التي تدق الأرض بقوة، وكأنها تعلن التمرد.

كلما ابتعدت عن البشر، كلما اقتربت من شيء مجهول، لكنه كان أكثر صدقًا من أي شيء عشته في حياتي. شيء أصيل، لا تشوبه شائبة. لكنني لم أستطع إيقاف نفسي، لم أستطع إيقاف هذا الهروب الذي بدا وكأنه جزء لا يتجزأ مني.

استفاقت عيناي المنهكتان على كهفٍ واسع في قلب الغابة. كنت قد استنفدت كل طاقتي في الجري، وشعرت بثقل جسدي الذي صار يئن تحت وطأة التعب، وبقلبٍ يكاد لا يتحمل المزيد من الألم. كانت تلك الفرصة الوحيدة للنجاة، أو هكذا ظننت في تلك اللحظة الحرجة.

مع غروب الشمس، بدأت الألوان تتبدل في الكهف الذي لجأت إليه. الضوء الذي خفت شيئًا فشيئًا، ترك المكان مظلمًا وغارقًا في سكون ثقيل يلف الروح. خارج الكهف، تحولت الغابة إلى عالم آخر، عالم غامض يتنفس الليل، مختلف تمامًا عما عرفته.

أضأت النار التي أوقدتها بصعوبة، وشعرت بلهيبها وهو يتلوى كطفل خائف، يصارع البرد القارس. كان البرد يزحف إلى عظامي، يصرخ في جسدي وكأنه يريد أن يفرض سيطرته على أعماقي، يذكرني بضعفي.

حولي، كانت أصوات الليل تتكاثر: صراخ بعيد لطائر جارح يقطع الصمت، خشخشة الأغصان المتكسرة تحت وطأة الرياح، أنين الرياح التي تجوب الجبال كأنها ترثي الأيام.

لم أكن خائفًا... لا، كان شعوري أعمق من ذلك. كنت أشعر بأنني صغير جدًا. صغيرٌ أمام هذا الكون اللامتناهي الذي لا يعبأ بوجودي أو زوالي. لأول مرة، شعرت أنني لا أعرف شيئًا عن الحياة. كنت أظن أن البقاء يعني أن تجد طعامًا وماءً فقط. لكن الآن، وأنا هنا، بين جدران هذا الكهف الذي يُشبه الحماية

والعزلة معًا، أدركت أن البقاء ليس مسألة نجاة من المخاطر الخارجية فقط... بل هو أن تنجو من نفسك.

من أفكارك المشتتة، من خوفك الملتصق بك، من الشكوك التي تبدأ في الانبعاث مع كل لحظة صمت تمر.

أغمضت عينيّ، وداخل نفسي كان هناك سؤال واحد يلحّ عليّ بلا توقف: "هل ستقبلني الطبيعة هنا؟ أم سأكون دخيلًا غريبًا لا مكان له في هذا العالم الأصيل؟"

في اليوم الثالث، بدأ الجوع يظهر لي وجهه القبيح. معدتي كانت تصرخ، كأنها تستنجد بشيء، بينما يديّ كانتا ترتجفان دون أن أتمكن من إيقاف ذلك. على الأقل، وجدت الماء من جدول صغير كان يمر بجانب الجبل، لكن الطعام... كان هو التحدي الأكبر.

بدأت أبحث بين النباتات ببطء، أتلمس أوراقها، أشمّها، وأحاول أن أتذكر كل ما قرأته عن البقاء في البرية. كنت مبتدئًا... كل شيء هنا كان يبدو كلغز معقد. لم أكن أملك المعرفة الكافية، وكنت أتحرك ببطء وحذر.

ثم... لمحت شيئًا في الأفق البعيد. شجرة تين بري باسقة، وتحتها كانت الثمار متناثرة على الأرض ككنز ينتظر من يكتشفه. قفز قلبي في صدري من الفرح، فصعدت الشجرة بحذر شديد، وكل خطوة كنت أخطوها كانت كأنها فوز صغير، انتصار على الجوع. كنت قريبًا من النجاة.

ولكن... كما هو الحال دائمًا، لم تدم الفرحة طويلاً.

بينما كنت أنزل من الشجرة، انزلقت قدمي على غصن رطب، وسقطت على الأرض بقوة. شعرت بألم حاد انفجر في جانبي الأيسر، وتأوهت بصوت خافت. حاولت النهوض، لكنني تعثرت مجددًا. الألم كان ينبض في جسدي، يرسل إشارات تحذير لا يمكن تجاهلها.

"أنا هنا... في مكان لا أحد يعتني فيه بك. لا طبيب. لا مساعدة. لا هاتف. فقط أنا، جسدي المكسور، وحدي مع هذه الغابة التي لا ترحم."

زحفت نحو جذع شجرة قريب، جلست على الأرض ببطء، وبدأت آكل التين بشراهة، لكن ببطء في ذات الوقت. كل قضمة كانت درسًا في البقاء، في مواجهة الألم. كنت أعلم أنني لا أنجو هنا فقط... بل يجب عليّ أن أتعلم كيف أواجه الألم. أتعلم كيف أعيش معه وأظل أقاوم، ولو كنت على ساق واحدة.

وفجأة... اهتزّت الأرض من تحتي. سمعت صوتًا حادًا، كأن الأشجار نفسها كانت تتشقق وتتصدع. نظرت إلى الأمام، وعينيّ اتسعتا من الرعب: قط بري ضخم. كان يحدق فيّ بعينيه الذهبيتين اللامعتين، وكأن الوقت توقف، والمصير معلق بين رمشة عين.

قلبك يتوقف عن الخفقان في هذه اللحظات. لا يوجد وقت للتفكير، ولا مجال للهروب. كان القط يقترب، خطواته ثقيلة وصامتة، لكنني... كنت مجمدًا في مكاني، جسدي تجمد من الخوف المطلق.

ثم، فجأة، ركضت. ركضت بلا تفكير، فقط لأن غريزة البقاء على قيد الحياة تفوقت على الخوف. الأرض كانت تنكسر من تحت قدمي، الأشجار تتهدم وأنا أركض بلا هدف سوى النجاة. لكن القط كان أسرع.

في لحظة، شعرت بمخالبه تغرز في ساقي، وكأنها سكين حاد ينغرس في جسدي. الألم انفجر في كل مكان، وتدحرجت على الأرض. حاولت النهوض، لكنني سقطت مجددًا، وأنا مغطى بالدماء. كان القط يحدق فيّ بعينيه الذهبيتين الثاقبتين، لكنه فجأة أوقف حركته.

شيء ما في الجوار، ربما ريح غريبة أو صوت غير معتاد، جعله يتردد. لحظة من الشك في عقله البرّي، ثم اختفى بين الأشجار بسرعة خاطفة.

مرّت لحظات قبل أن أتمكن من الوقوف على قدميّ المرتعشتين. الألم كان يعصر جسدي، وكل حركة كانت تعني عذابًا إضافيًا. شعرت بالضعف، بالهشاشة المطلقة. لكن بين الألم، كانت هناك لحظة من الوضوح الساطع. شعرت أنه مهما كانت الجروح التي أصابتني، يجب أن أستمر. يجب أن أواجه هذا العالم، وأواجه نفسي الهاربة.

فجأة، تساقط المطر بغزارة، وكأن الطبيعة نفسها كانت تعزيني في محنتي. كانت قطرات الماء الباردة تلامس الجروح الساخنة، وكأنها تواسي آلامي وتغسل عني غبار الضعف.

بعد مرور أيام على ذلك الحادث المروع، كنت أجلس قرب النهر، ممددًا ساقي المصابة. الماء كان ساكنًا، عاكسًا وجهي كما لو أنه يعرض عليّ نسخة لا أعرفها. عيوني؟ أعمق من ذي قبل. بشرتي؟ أكثر خشونة وصلابة. لكن ما أثار

دهشتي هو صمتي... لم يكن فارغًا هذه المرة. كان ممتلئًا بكل ما لم أعد أحتاج أن أقوله.

لم أعد أطرح السؤال القديم الذي طالما أرّقني: "لماذا أنا هنا؟" بل سؤالًا جديدًا ظلّ يطرق رأسي بهدوء، سؤالًا أكثر عمقًا: "من أنا الآن؟"

لمست الندبة على ساقي. كانت لا تزال طرية، لكنها لم تعد تؤلمني كالسابق. لم أعد أهرب من الألم... فقط أجلس بجانبه، وأصغي لما يقوله لي بصمت.

"بقيتُ... وهذا يكفي الآن." قلتها لنفسي، لا كاعتراف بالهزيمة، بل كإعلان بداية جديدة، فصل جديد في حياتي.

لم أكن أسمع شيئًا سوى الرياح وأصوات الطبيعة المألوفة التي أصبحت جزءًا مني، ولكن فجأة، انفصل هذا الصمت عن نفسه حين سمعته. أنين ضعيف، بل يكاد يكون بكاءً رقيقًا. اتبعته بخطوات حذرة، قلبي يخفق سريعًا. كل شيء في هذا المكان يمكن أن يكون فخًا، لكنني لم أستطع أن أتجاهل هذا الصوت المستغيث.

وجدته، ثعلبًا صغيرًا، عالقًا بين صخرتين عملاقتين. كان ينزف، وعيناه الصغيرتان مليئتان بالألم، وكأن تلك العينين تشاهدان معركة لن ينجح فيها. توقفت. لم أكن أعرف ماذا أفعل. قبل أيام قليلة، ربما كنت سأبتعد، أو أتركه يعاني ويواجه مصيره. لكن الآن؟ شعرت بشيء آخر... شعرت أنني يجب أن أساعده.

فجأة، تحركت يديّ بسرعة، دفعت الصخرة التي كانت تحجزه، وبذلت جهدًا أكبر مما توقعت من جسدي المنهك. بدأ الدم ينساب من ساقه، لكنني لم أتوقف.

ضمدت جرحه بعناية فائقة، كما تعلمت من النباتات التي استخدمتها لندبتي الخاصة. حملته بلطف، حتى وضعته بالقرب من ناري المتوهجة، يدفئ جسده الصغير.

لم أتكلم. هو أيضًا لم يتكلم. لكن لحظة تلك الرعاية كانت كافية لتعلمنا الكثير. ربما عن الحياة، عن الرحمة التي تنبع من قلب جريح، عن الخوف الذي يجعلنا نبتعد عن الآخر، ولكن الندوب... الندوب هي التي تجعلنا أكثر قربًا وتفهماً.

تلك الليلة، الثعلب غفا بالقرب مني، محتميًا بلهب النار. وأنا؟ نظرت إلى السماء المرصعة بالنجوم، وقلت لنفسي: "ربما يجب أن أبقى هنا. هنا حيث لا شيء يهرب من وجهك، وحيث الحياة تشكلنا بصرامتها ولطفها."

مرّت الأيام، وصار الثعلب رفيقي الصامت، ظلي المخلص. كان موجودًا دائمًا، بجانبي، قريبًا مني. كنت ألاحظ أنني أتحدث إليه أكثر من نفسي. كيف يمكن لحيوان أن يكون بهذا الهدوء، ويمنحني كل تلك السكينة والقبول غير المشروط؟

ذات مساء، بينما كنا نجلس بجانب النار المتوهجة، كان هو يراقب الراقصات الصغيرة من اللهب بانبهار، وأنا أفكر في الأيام التي مضت، الأيام التي سحقتني. كنت قد تعبت من النظر إلى الماضي، ومن التفكير في كل ما كان. ربما هذا المكان، هذا الفضاء الفسيح الذي لا حدود له، هو المكان الوحيد الذي لا يحتاج إلى تفسير. كل شيء هنا واضح، بسيط، وأصيل.

قلت للثعلب وأنا أراقب النجوم المتلألئة في السماء: "هل كنت أهرب حقًا؟ أم كنت فقط أبحث عن نفسي في أماكن أخرى، خارج حدودي؟" لم أتوقع إجابة، لكنه ظل يراقبني بعينيه اللامعتين، كما لو أنه يفهم كل كلمة قلتها، ويحمل لي جوابًا صامتًا.

في تلك اللحظة، شعرت بشيء غريب، شعور بالاتصال العميق. كان كل شيء في هذا المكان يعلمني شيئًا جديدًا. تعلمت من الأشجار كيف أن تكون ثابتًا راسخًا وسط العواصف العاتية، من الماء كيف أن تنساب بسهولة ورقة رغم الصخور والعقبات، ومن الرياح كيف تمضي إلى حيث تشاء دون تردد أو خوف.

لكن الأهم من ذلك، تعلمت كيف أكون أنا. بدون أن أهرب من ظلي. بدون أن أختبئ وراء ماضيي المليء بالندوب.

الثعلب رفع رأسه فجأة، ثم انطلق في الجري بسرعة، بعيدًا، مختفيًا بين الأشجار. لم أتبع خطواته هذه المرة. تركته ينطلق حيث يشاء بحريته، وأنا بقيت هنا، تحت السماء الشاسعة، حيث لا شيء يُفرض عليّ، ولا أحد يطلب مني أن أكون غير ما أنا عليه.

مرت أسابيع، وتغيرت الكثير من الأشياء داخلي وخارجي. صار لدي الآن مأوى صغير صنعته بيدي، مجموعة من الأدوات البدائية التي أصبحت أعتمد عليها، وطعام زرعته بيدي من بذرة صغيرة. كان الثعلب لا يزال يركض بحرية حولي، وأحيانًا يأتي ليجلس بجانبي، كما لو أنه كان يشاركني هذا الوجود الهادئ المكتشف حديثًا.

ولكن شيئًا ما بدأ يتغير داخلي بعمق أكبر. لم أعد أفكر في العودة إلى العالم الذي هربت منه، ولم أعد أفكر في الماضي بأسره. الغابة أصبحت بيتي الآن، ملجأي، ومدرستي. تلك الندبة على ساقي، التي كانت يومًا ما علامة على الألم والهزيمة، صارت جزءًا مني، ولم أعد أراها كعائق. كنت أعرف أنه في هذه الأرض، حيث يتنفس كل شيء معًا، كان الألم جزءًا لا يتجزأ من النمو والنضج.

"كيف يمكن للإنسان أن يعرف نفسه حقًا؟" فكرت بصوت متهدج. وأجبت نفسي بهدوء وثقة: "أنت تعرفها عندما تتوقف عن الهروب منها."

كنت قد صنعت لي حياة هنا، حياة أصيلة، وقد تعلمت أنني لست بحاجة إلى الماضي ولا إلى تعقيدات البشر لأعرف من أكون. الغابة علمتني أن أكون كما أنا، بكل ما فيَّ من عيوب، ألم، ونضج. علمتني أن القوة الحقيقية تكمن في قبول الذات.

وقفت على حافة التل، أراقب الأفق البعيد الذي يمتد بلا نهاية، والشمس تغرب خلف الجبال الشاهقة، ترسم لوحة من الألوان الذهبية. في تلك اللحظة، كان الجو هادئًا، والمستقبل غير مهم، والماضي قد تلاشى. فقط هذه اللحظة. هذه الحياة التي صنعتها لنفسي بكلتا يديّ.

ثم نظرت إلى الثعلب الذي كان يركض بعيدًا، ولاحظت أنه اختار أيضًا مكانه في هذا العالم الواسع. بدأنا نعيش معًا، لا كغريبين، بل كجزء من هذا الكون الذي جمعنا هنا في هذا المكان الساحر.

صرتُ أعرف الآن، أن بعض الأشياء لا يمكن الهروب منها أبدًا، وأن الحياة ليست مشكلة يجب حلها، بل رحلة يجب أن تُعاش بكل تفاصيلها. هنا، في عمق الغابة، تعلمت أن الرحمة تبدأ من الداخل، وأننا إذا أوقفنا الهروب، سنجد أننا في المكان الذي كنا دائمًا نبحث عنه، حتى لو لم نعرفه في البداية. لقد وجدته أخيرًا... في داخلي.

"ومن بين شقوق الصخور التي احتضنت وحدتي، بزغت نبتة صغيرة لم يكن لها أن تنمو هنا. لم تكن مجرد نبتة، كانت همسًا، وعدًا، بأن الحياة تجد دائمًا ثغرة لتتغلغل منها، تمامًا كما فعلت روحي."

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

وجهي الذي لم أعد أخفيه

كانوا يقولون لي دائمًا: "أنت كثير الأسئلة، كثير الصمت، وكثير الرسم." لكن لا أحد قال لي يومًا: "أنت جميل."

في صور العائلة، أكون غالبًا خلف الجميع، أو لا أكون أبدًا. لا أحد يقول لي هذا صريحًا، لكنني أفهمه، حتى وأنا في العاشرة من عمري. أعرف أن الوحمة الكبيرة على وجهي تخيف البعض، أو تزعجهم. أعرف أنهم لا يقصدون أذيتي دائمًا، لكنهم لا يحاولون أن يمنعوها أيضًا.

أنا "مالك"، وهذا هو اسمي. لكنهم ينادونني في المدرسة بأسماء كثيرة... ولا واحدة منها كانت اسمي.

في الفسحة، أختار الجلوس قرب الجدار البارد، حيث لا يمر أحد كثيرًا. أراقب الأولاد يلعبون كرة القدم، وأتظاهر أنني لا أريد اللعب. في الحقيقة، أريد. أريد الركض والصراخ والضحك مثلهم. لكنني أعرف النتيجة: في كل مرة أقترب فيها، يهمس أحدهم بشيء، ثم يضحكون. أحيانًا يقولونها علنًا: "دعوه يحرس المرمى، لا أحد يقترب من وجهه!"

مرة، قال لي سامي، وهو يرمقني بنظرة سريعة: "لو كان عندي وجه مثلك، ما خرجت من البيت." ضحك، وضحك معه الباقون. أما أنا، فلم أضحك. ولا بكيت. فقط رجعت إلى الجدار، وجلست، ورسمت وجهًا بلا ملامح.

كنتُ أملك صديقًا واحدًا فقط، اسمه حسّان. كان يجلس معي وقت الغداء، ويضحك على نكاتي حتى لو لم تكن مضحكة. كان يراني قبل أن يرى وجهي، وهذه نعمة نادرة في عالمي. لكنه تغيّر فجأة، منذ أن بدأ الأولاد يتهامسون حولنا، وينادونه "صديق الوحش". في البداية تجاهلهم، ثم صار يضحك معهم، ثم ابتعد... لم يخبرني بشيء، فقط بدأ يجلس مع غيري، ويتظاهر بعدم رؤيتي عندما أمرّ قربه. وأنا... لم أغضب. لم أعاتبه. فقط حزنت، حزنت كثيرًا. وصرتُ أجلس وحيدًا أكثر، وأرسم أكثر، وأحذف ملامح وجهي في كل صورة أرسمها لنفسي، وكأنني أمحو وجودي شيئًا فشيئًا.

في آخر عطلة نهاية أسبوع، أرادت العائلة التقاط صورة جماعية لحفل عيد ميلاد أختي الصغرى. ارتديت قميصي المفضل، وسرّحت شعري جيدًا، ووقفت بفخر بجوار أخي الأكبر. لكن عمتي، بنبرتها المعتادة، قالت: "مالك، تعال، اجلس هنا في الخلف بجانب الطاولة." ثم همست لأمي، وظننت أنني لم أسمع، لكنها قالتها بصوت واضح بما يكفي، وكأنها لا تكترث لوجودي: "لا أريد أن تُفسد الصورة... تعرفين أن أمهات البنات سينظرن لها." أمي لم ترد، فقط نظرت إليّ نظرة قصيرة محملة بالشفقة، ثم أشاحت بوجهها. جلست في الخلف، بظهر شبه مطوي. لم أبتسم. ولم أُظهر وجهي للكاميرا، كي لا أفسد صورتهم .

في المساء، دخلت غرفتي، وأخذت صورتي القديمة، تلك التي كنت أبتسم فيها بلا خوف، بلا وعي لوحمتي أو نظرات الآخرين... ومزّقتها إربًا، كأنني أمحو آخر أثر للسعادة من داخلي.

في مدرستي كانت أستاذة الرسم، الآنسة هناء، مختلفة. لم تكن تبتسم كثيرًا، لكن ابتسامتها عندما تأتي كانت دافئة... كأنها تفهم ما لا نقوله، ما يختبئ في

أرواحنا. في أحد الدروس، مرّت بين الطاولات، تتأمل رسوماتنا بعين فاحصة. عندما وصلت إلى دفتري، توقفت، وعيناها مثبتتان على رسومات الوجوه بلا ملامح.

"مالك، لماذا ترسم نفسك بلا وجه؟"

أجبتها بسرعة، بخوف طفل اعتاد الكذب ليحمي نفسه: "لأني لا أعرف كيف أرسم الملامح."

لم تجادلني. فقط قالت بهدوء، وكأنها ترى ما وراء كلماتي: "رسمك ممتاز... لكن يبدو أنك نسيت أن تنظر جيدًا في المرآة." ثم ابتعدت، وتركتني محتارًا... لأول مرة، شعرت أن أحدًا لاحظ غيابي... ليس غيابي عن الصورة فقط، بل غيابي عن نفسي.

في الحصة التالية، سلّمتني الأستاذة ورقة مطوية وهمست: "خذها بعد الحصة." وعندما فتحتها، وجدت فيها رسمًا صغيرًا لطفل يبتسم... لكنه بلا ملامح، تمامًا كرسوماتي. وتحتها كتبت بخط بسيط وواضح: "أحيانًا نحتاج من يرانا جيدًا لنتذكر كم نحن رائعون."

في اليوم الذي يليه، تجرّأت وسألتها، وقلبي يخفق: "هل كنتِ تقصدينني؟" فقالت دون أن تلتفت، وكأنها تتحدث عن أمر واضح جدًا: "يا مالك، كل واحد فينا يشعر أحيانًا أنه غير موجود، كأنه بلا وجه في الصورة. بس الأستاذة هناء شايفة إنك موجود، ومهم، وجميل زي ما أنت."

منذ ذلك اليوم، بدأت أتشجع لأرسم نفسي بوجه، حتى لو لم يكن كاملًا. كانت محاولات خجولة، لكنها كانت خطوة. وفي إحدى المرات، تركت دفتري مفتوحًا على الطاولة وخرجت لأشرب الماء... وعندما عدت، وجدت ملاحظة صغيرة على هامش إحدى الرسومات، مكتوبة بخط الآنسة هناء: "هذا أنت... وهذا جميل." لم أصدق عيني. "جميل"! كلمة لم أسمعها قط مرتبطة بي.

في صباح يوم أربعاء، علّقت الأستاذة هناء ورقة جديدة على لوحة الإعلانات. "مسابقة أفضل رسم تعبيري عن العائلة. الموعد النهائي: بعد أسبوع." أقبل التلاميذ بحماس. بعضهم بدأ يرسم فورًا، وبعضهم أخذ يتفاخر مسبقًا بفوزه. أما أنا... فتوقفت طويلًا أمام الورقة.

العائلة؟ هل عليّ أن أرسم تلك الصورة التي أُبعدت عنها؟ تلك التي لا أظهر فيها؟ عدت إلى مقعدي، وفتحت دفتري، وبدأت أرسم... ثم مسحت. ثم بدأت من جديد... ثم مزقت الصفحة بيأس. في اليوم الثالث، لم أرسم شيئًا. وفي اليوم الرابع، رأيت الآنسة هناء تراقبني من بعيد، فابتسمت لي ابتسامة خفيفة. وفي داخلي، بدأ شيء صغير يتحرك... فكرة لم تكتمل، لكنها تشبه الحلم.

في اليوم الخامس، حملت أوراقي لأتجه إلى الصف، وعندما مررت بالممر، صادفت سامي ومجموعته. نظر إلى الأوراق، ثم سحب إحداها وضحك بسخرية وهو يقول: "هل سترسم صورتك؟ أخبرنا فقط... أي وجه ستختار؟ اليمين أم اليسار؟ أم الوحمة؟" ضحكوا. ضحكوا كثيرًا، وكأنهم يمتلكون الحق في الحكم على وجودي. سامي مزّق الورقة ببرود ورماها في سلة المهملات.

وقفت هناك لثوانٍ، شعور بالاختناق يجتاحني... ثم مشيت دون أن أقول شيئًا. في عقلي، تكررت صورة عمتي، ونظرة أمي الفارغة، ووجه حسان وهو يشيح

ببصره. عدت إلى مكاني، وأمسكت بقلمي... وترددت. هل أشارك؟ هل أضع نفسي أمامهم، في لوحة؟ هل أجرؤ على أن أكون مرئيًا... أخيرًا؟

في المساء، أغلقت باب غرفتي بإحكام، وأحضرت أوراقي، وجلست على الأرض الباردة. نظرت طويلاً إلى الورقة البيضاء، إلى المساحة الفارغة التي كانت تنتظر مني أن أملأها. لم أرسمهم كما أرادوني أن أكون، بل كما رأتني الأستاذة... كما بدأت أرى نفسي: إنسان له مكان في الصورة.

رسمت عائلتي كما هي، لكن هذه المرة، وقفت في الأمام، أحتل مركزي الذي طالما حرمت منه. رسمت وجهي بكل تفاصيله... الوحمة البنية، العين المائلة قليلًا، والانحناءة الخفيفة في فمي. لم أخفِ شيئًا. لم أحذف ملامحي. وفي النهاية، كتبت أسفل اللوحة بخط واضح ومفعم بالثقة:

"هذه عائلتي... وأنا فيها، كما أنا."

ثم طويتها بعناية، ووضعتها في حقيبتي، وذهبت للنوم. ولأول مرة منذ زمن طويل... نمت دون أن أكره وجهي، بل شعرت بسلام لم أعهده.

في الصباح، حملت اللوحة بيدي، ووقفت أمام باب الصف. تردد قلبي للحظات. تخيلتهم يضحكون، يشيرون إلى رسم وجهي، يهمسون كعادتهم. مددت يدي، ثم سحبتها... ثم مددتها مرة أخرى. نظرت إلى الورقة مرة أخيرة، وهمست لنفسي، وكأنني أقسم: "إن لم يروك كما أنت... فلترِهم أنت نفسك كما هي." دفعت الباب ودخلت، وسلّمت اللوحة للأستاذة هناء. نظرت إليها، ثم إليّ، وابتسمت ابتسامة لم أرها منها من قبل... وهمست: "أخيرًا... ظهرت في الصورة."

في صباح يوم الأحد، دخلنا الصف وكانت اللوحات مُعلّقة على الجدران البيضاء. مشيت ببطء بين الصور: أمهات يقدّمن الطعام، آباء يرفعون أطفالهم، بيوت مليئة بالضحك... ثم وقفت أمام لوحتي. كانت هناك، بين الجميع، دون أن تُخفى أو تُخبأ. كانت تصرخ بوجودي.

لكن قبل أن أتأملها، دخلت الآنسة هناء وصفّقت مرتين، وابتسامة واسعة تزيّن وجهها: "أحسنتم جميعًا... لكن هناك لوحة واحدة، لم تكن الأجمل في الرسم فقط، بل في الشجاعة أيضاً." ثم أشارت إلى لوحتي. تجمّع الطلاب، أحدهم قال بدهشة لا تخلو من الإعجاب: "هذه رسمها مالك؟!" لم أهرب. لم أخفِ وجهي. وقفت هناك، وقلبي يخفق بسرعة، لكنني لم أنظر إلى عيونهم... نظرت فقط إلى صورتي، إلى النسخة التي أخيرًا رأيتها تستحق أن تكون في العائلة، وتستحق أن ترى النور.

في نهاية اليوم، عدت إلى البيت، وعلّقت لوحتي الصغيرة على جدار غرفتي، فوق سريري مباشرة. جلست أمامها طويلًا، أتأملها كما لو أنني أراها للمرة الأولى، وكأنها مرآتي الجديدة. كنتُ هناك... في الصورة... لم يُخفِني أحد، ولم أُخفِ نفسي.

لم أعد أرسم وجهي بلا ملامح، ولم أعد أكره المرآة. ربما لن يحبني الجميع، وربما ما زالت الوحمة في مكانها... لكنني تعلمت شيئًا واحدًا، هو أغلى من كل نظرات الإعجاب التي بحثت عنها:

أنا لا أحتاج لوجهٍ مختلف... بل لنظرة مختلفة.

وأحيانًا، كل ما نحتاجه لننتمي، هو شخص واحد فقط... يرانا كما نحن.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

لسنا دائمًا ما نظهر وجوهنا الحقيقية...

بعضنا يخفيها بالخوف، وبعضنا بالابتسامة، وبعضنا لا يعرفها أصلًا.

هذه القصص محاولة لرؤية تلك الوجوه، وسماع صوتها، ولو مرة.

شكرًا لأنك مشيت معي هذا الطريق حتى النهاية.

وربما، في صفحة ما، وجدت نفسك...

أو من كنت تخشى أن تكون.

أسعد بتواصلكم وملاحظاتكم، فأنتم جزء من هذه الرحلة.

https://www.facebook.com/Esraa.AlHashimi?mibextid=ZbWKwL